
صفحات من
التاريخ السياسي للشيعة



فوزي آل سيف

صفحات من
التاريخ السياسي للشيعة

الطبعة الأولى

١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م

هوية الكتاب:

❊ **الكتاب:** صفحات من التاريخ السياسي للشيعة.

❊ **المؤلف:** فوزي آل سيف.

❊ **الطبعة:** الأولى، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.

﴿بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١)

الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢)

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣)

مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤)

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)

اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ (٦)

صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ

غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ (٧)﴾



المحتويات

مقدمة وتمهيد

شـهدت العقـود الثلاثـة الأخيرة مـن القرن المنـصرم تحولا مهما في الوضع الشـيعي على مسـتوى العـالم لاحظه المراقبـون وتوقفوا عند دلالاتـه. بعضهـم عـبر عنه بـ (صحوة الشـيعة) وآخـرون تحدثوا عن (انبعاث) الطائفة،وبعضهم عن صحوة المستبعَدين.

فعـلى المسـتوى السـياسي تحقـق لهـم لأول مـرة دولـة قائمة على أسـاس ديني بقيـادة علماء دين بعد ثورة اسـتطاعت القضاء على النظام الشاهنشـاهي الموالي للغرب. وقد نختلف أو نتفق في تفاصيل ما يجري على السـاحة الإيرانية، غير أن بقاء هذه الثورة لمدة ثلاثين سـنة، قدمت خلالهـا نموذجـا في المواءمـة بـين قيـم الديـن وأحكامه مـن جهة وبين متطلبات الدولة الحديثة من جهة أخرى يُعد انجازًا مهمّا.

وفي تجربـة المقاومـة للعـدو الإسرائيـلي قـدم الشـيعة اللبنانيـون مثـالا طيبا، اسـتطاعوا فيه إسـقاط فكـرة الجيش الـذي لا يقهر والذي عملـت إسرائيل باسـتمرار على تكريسـها بالقول والفعـل.. فقد خرج الإسرائيليـون مرغمين تحت وطأة الضربات المتتابعـة التي وجهتها لهم المقاومة في سـنة ٢٠٠٠ في مشـهد أثـار الكثير من المعـاني والتداعيات، وعندما حاولوا أن يعيدوا شيئا من الثقة بجيشهم، إذا بهم يواجهون قوة أسطورية تتصدى لهم، وكان أقصى غاياتهم أن يقنعوا من الغنيمة بالإياب

مـن (بنت جبيل) ووحول الجنوب!، ولكـي لا يرجعوا بالفضيحة فقد صبوا جام غضبهم عـلى البنايات والعمارات والمدنيين، فكانت فضيحة أخرى أعظم في عام ٢٠٠٦م.

وفي مجال آخر خاض الشيعة تجربة يعتقـد بأنها أكثر نضجا وهي التجربـة العراقيـة الحديثة، فبالرغم من خروجهم مـن حالة الاضطهاد والمظلومية التي استمرت معهم عقودا كثيرة حرموا فيها من حقوقهم الأساسـية، ومـورس تجاههـم الإقصـاء بل العنـف والتنكيـل بصوره البشعة وكان يتوقع أنهم مع خروجهم من تلك الحالة في صورة الغالبين المتمكنين أن يبدأ تيار الانتقام والإقصاء المقابل، إلا أنهم تغلبوا على تلك الحالة -بفضل قياداتهم الدينية التي وقفت بقوة أمام هذا التوجه-.

وأصروا على مشاركة المكونات الأخرى في المجتمع العراقي، كما احتكموا -بالرغم من الأوضاع الأمنية والشـحن النفسي- إلى صناديق الانتخابـات، في نحـوٍ يذكـر بالانتخابات الحرة التي تجـري خارج بلاد المسلمين عادة!.

كـما أننا نشـهد توجهـا متوازنا نحـو الفعل السـياسي في أكثر من منطقة من مناطق الشـيعة، ومحاولة المشـاركة السياسـية بعدما كان هذا الأمر غير محسـوم على المسـتوى النظري والفكري، فضلا عن الممارسـة العملية..

ولاشـك أن مثـل هـذا التوجه -بعد مـرور مقدار مـن الوقت- سـيكون لـه أثر كبـير في إندمـاج الشـيعة في أوطانهـم، وخروجهم من التغييب والتهميش والإقصاء الحاصل له.

إن خـروج الشـيعة مـن حالـة الانتظـار السـلبي والانفعـال إلى

مرحلـة الفعـل والدور يعد من أهم تلك العلائم التي تشـكل الصحوة الشيعية..

الصحوة الشيعية ليس موجهة ضد فئة:

مما يؤسـف له أن قسـما مـن أبناء الأمـة تعامل مع هـذه الصحوة والنهضة تعاملا طائفيا غير مبرر، وكأنها موجهة ضد الطوائف الأخرى في الأمـة، فبدأ بالتشـويش عليها والتهويل مما وصفه بآثارها السـلبية.. وهذا التعامل شـمل السياسـيين وقسـما من المفكرين، ومن الطبيعي أن الجمهور سيسلك نفس الطريق هذا.

لقـد أصبحنـا نشـهد في الإعـلام عبـارات عن خطـورة (الهلال الشيعي)، وعن التخوف من الشيعة في مناطقهم المختلطة لأن ولاءاتهم خارجية وارتباطهم ليس بوطنهم!

إننـا نعتقـد أنـه كان ينبغـي أن يرحـب المسـلمون مـن الطوائف الأخـرى بالصحوة الشـيعية تلك والقوة الناهضـة، وذلك لأن قوة أي جزء من أجزاء الأمة سيعود بالقوة على الأمة ككل.

لم يأخذ الشـيعة مواقـع غيرهم من الطوائف، أو يسـتقووا عليها وإنما الذي حصل هو أنهم صاروا أقوياء وغالبين في وجه أنظمة مرتبطة بالاستعمار الخارجي كما هو الحال في مثال الثورة الإسلامية في ايران، أو في وجه أنظمة علمانية لا ترتبط حقيقة بطائفة من المسـلمين كما هو مثال الحالة العراقية، أو أنهم واجهوا إسرائيل وهي عدو الجميع.

فكان الصحيح أن يتم الترحيب بهذه الصحوة والغلبة.

نعتقد أن توجه الشـيعة إلى المشـاركة السياسية والاندماج ضمن

المكونـات الوطنيـة والدخول في المعادلة السياسـية هو أمـر مهم ومفيد لجميع المسلمين، إذ أنه ينظم العلاقات بين طوائف المسلمين على أساس معقـول، ويتيح لـكل فئـة أن تتخذ خياراتهـا ضمن قدراتهـا وحجمها الواقعي.

إن من الطبيعي هنا أن يتم الاسـتقطاب بين التوجهات الموجودة في الأمـة، تجـاه الجمهور فيحاول كل فريق سـياسي أو حتـى مذهبي أن يسـتقطب له أنصـارا ومؤيدين.. وهذا ما نفخ في قربته -مع الأسـف- قسـم مـن الدعـاة والعلماء مهولـين ومخوفين فيه من التبشـير الشـيعي، ومتنادين لوقفه، بل محرضين للحكومات والسلطات ضده!.

لقـد تم الحديـث في هذا الموضوع، مع الأسـف، بنَفَس إقصائي، فهو يعتبر أن تحول شخص ما أو فئة إلى مذهب التشيع هو نوع من أنواع الاخـتراق الخطير، غير المقبول والذي يهدد النسـيج الاجتماعي لوحدة المسلمين أو أنه يمهد للفتنة الداخلية..إلى غير ذلك مما ذكر.

ونحن نعتقد أن هذه الصحوة وهي شأن داخلي بالدرجة الأولى، حصلـت عندمـا توجـه الشـيعة إلى أهميـة تصحيح قسـم مـن الأفكار السائدة، وتعديل بعض الممارسات القائمة، الأمر الذي انتج بمجموعه ما قدمنا ذكره.. وحيث أن الشـيعة ليسـوا فئة معزولـة جغرافية بل هي متداخلـة مع أبناء الطوائـف الأخرى، ومع ملاحظة سـهولة التواصل وتبادل التأثير في ظل عولمة الاتصال والمعرفة.. حدث تحول في صفوف بعض المسلمين تجاه مذهب أهل البيت..مثلما يحصل عادة من تأثر بعض المجتمعات بوجود حركة أو حزب عامل.. حتى لو لم يكن في نظر تلك الحركة أن تؤثر في المجتمع، فإن قانون المجاورة يقتضي ذلك.

إن ما لاحظناه هو قيام الأنظمة السياسية باستغلال هذه الشعارات لتصفية حساباتها مع دول محسوبة على الشيعة، ومع قيادات شيعية، بل ومع مواطنيها الشيعة الذين أصبحوا متهمين بالارتباط بالخارج حتى تثبت براءتهم ولن تثبت! أو متهمين بالاختراق للمجتمعات غير الشيعية وسيكون التشيع ونشر فكر أهل البيت عندئذ من أدلة الجريمة والاتهام!.

لقد سعى هؤلاء إلى محاصرة التشيع حتى مناطقه، بأنه وافد حديث العهد، وبأنه حالة سياسية لا ترقى إلا إلى عدة عقود من الزمان، حتى لقد قال بعضهم إن الشيعة عليهم أن يرحلوا من بلاد العرب إلى الأماكن التي جاؤوا منها!.

سوف يتبين من خلال استعراض سريع أن (الشيعة العرب: هم المسلمون المنسيون) كما عنون أحدهم كتابه، وأنهم أصل التشيع، فتاريخهم يرجع إلى أعرق القبائل العربية كهمدان وعبدالقيس، بل إن تشيع إيران كان هدية العرب إلى الإيرانيين!.

في هذه الصفحات التي كانت في الأساس محاضرات ألقيت في موسم محرم ١٤٣٠هـ، سوف يتم الحديث عن بعض مكونات الهوية الشيعية، لاختصار الطريق على من يريد التعرف على أهم ميزات وصفات التشيع، وذلك أن من أسوء الحالات التي يعيشها الشيعة في علاقتهم مع غيرهم هو تنميطهم بنمط واحد وسيء من قبل الآخرين، فإذا تم الحديث عن الشيعة فهذا يعني عند هؤلاء: سب الصحابة، وتحريف القرآن، والتقية (بمفهومها الخاطئ)، والغلو في علي وأهل بيته! سوف يحاول الحديث مع اختصاره أن يبين أهم مكونات تلك

الهويـة، بغـض النظر عن قبـول الآخريـن لها،فليس مطلوبـا أن يقبلني الآخـرون، ولكـن أن يفهموني كما أنـا.. لا أن يصطنعـوا لي صورة غير حقيقية ثم يتعاملوا معي على أساسها!.

وقـد تـم الحديث عن الشـيعة في العـالم، ومـع أن الأكثر يجب أن يعـرف عدد الشـيعة الدقيق على مسـتوى العالم إلا أن المقـال يتطرق إلى دلالات التنوع الجغرافي والعرقي واللغوي وتاريخ حكم الشيعة للبلاد الإسلامية.

كما تم التطرق إلى تاريخ التشـيع والشـيعة في أربـع مناطق تتمتع بأهميـة اسـتثنائية ففي اسـتعراض سريـع تمت متابعة نشـوء التشـيع في العـراق بـدءا من تمصير الكوفة وتحول الإمام عـلي إليها فيما بعد، إلى أن تحـول العراقيـون في أكثريتهـم إلى المذهب في أوائل القرن التاسـع عشر الميلادي.

ولبنان التي تحول فيها الشيعة اليوم إلى ما يشبه بيضة القبان، كان لهم تاريخ يبدأ من هجرة الهمدانيين من الكوفة.

كـما تـم الحديث عن تاريخ التشـيع في إيران، وتبـين فيه كيف أن التشيع في مختلف مراحله وصل وانتشر في إيران بواسطة الرواة والعلماء العرب الذين قدموا من الكوفة أولاً ثم لبنان والبحرين ثانياً.

وفي الاسـتعراض التاريخـي تـم الحديث عن التشـيع في القطيف والأحسـاء والذي بدأ مع إسـلام عبدالقيس في حوالي السـنة السادسـة للهجرة.

وأخيرا كان هناك عرض لبعض المشـاكل التـي يبتلى بها المجتمع

الشـيعي، ويلاحـظ أن زاوية النظر هنا هو مجتمعنا الشـيعي في القطيف والأحسـاء، وإن كانـت ربـما توجـد بدرجـة أو أخـرى في غـيره مـن المجتمعات الشيعية..

ولا أنسى أن أشير إلى أنه ربما نشر بعضها سابقا بشكل منفصل.

يلاحظ أن الكتاب هذا موجه إلى الطبقة الشـابة متوسطة الثقافة، ولذلـك فهو يعالج المسـائل المذكورة ضمن لغتهم قـدر الإمكان بعيدا عن الحديث التخصصي.

أسأل الله سبحانه أن يوصل هذا الكتاب رسالة إيجابية لمن يقرأه.. والله ولي التوفيق.

فوزي محمد تقي آل سيف
تاروت، القطيف
شرق المملكة العربية السعودية
١/ ٣/ ١٤٣٠هـ.



مكونات الهوية الشيعية

يعـرّف باحثون العـصر الحديث بأنه عصر انبعـاث الهويات، بل تفجرها في صور لا يخلو بعضها من العنف.

لقـد قامـت دول جديدة معتمـدة على هذا الانبعـاث، كما انتهت دول كانـت جامعـة لشـعوب مختلفـة، وما ذلـك إلا لأن عنـاصر تلك الشـعوب تبحث عن هويتها الخاصة بعد أن قمعت في ظل تلك الدول الجامعـة (أو القامعة للهوية الخاصة)، والمثال الأوضح في عالمنا المعاصر هو: تفتت الاتحاد السـوفيتي سـابقا واسـتقلال الجمهوريات المكونة له عـن روسـيا،واتخاذها منهجا يحقق هويتهـا الخاصة كالإسـلام دينا، أو العرق الخاص، بل وجدنا الأمر وصل إلى تحدي بعض الدول المسـتقلة للدولة الأم إلى حد الحرب بينهما كما في مثال (جورجيا وروسيا).

والمثـال الآخر: سـعي المسـلمين في البوسـنة والهرسـك لتحقيق هويتهم الخاصة بعد الاستقلال عن اتحاد يوغسلافيا.

إن « كثـيرا مـن الباحثين الغربيين الذين راقبـوا تفجر الصراعات القوميـة والمذهبية بعد تفكك الاتحاد السـوفيتي عام ١٩٩١م، مالوا إلى تفسيرها بأنها تعبير عما وصفوه بانفجار الهوية. ويقدر عدد المجموعات الإثنيـة التـي عبرت عن نفسـها سياسـيًّا بما يزيد عـن ٣٠٠٠ في مختلف

أنحاء العالم، مقارنة بنحو ٩٠٠ مجموعة في أواخر سبعينات القرن العشرين. ويقدر عدد الحركات الانفصالية التي قامت في هذا الإطار بنحو ٦٠٠ حركة خلال العقود الثلاثة الأخيرة.

وخلاصة هذا التفسير أن مجموعات متمايزة إثنيًّا اضطرت سنوات طويلة إلى كبت هويتها أو خضعت لإدماج قسري في ثقافات أخرى مهيمنة، أو أنها لهذا السبب أو غيره كانت غافلة عن هذه الهوية ودورها في تشكيل رابطتها الاجتماعية وشخصيتها المتميزة. لكن مع زوال الهيمنة -بتفكك الدولة السوفيتية مثلاً-، أو بسبب انفجار ثورة المعلومات والاتصال (انتشار التلفزيون الفضائي، الإنترنت، التلفون المحمول) أو بسبب انتشار مفاهيم حقوق الإنسان والحريات الشخصية والمدنية والمشاركة، أو لهذه الأسباب مجتمعة، اكتشفت تلك المجتمعات ذاتها الخاصة، أو اكتشفت أنها تتعرض للتمييز أو قلة التقدير لأن الآخرين لا يعاملون أعضاءها بوصفهم مواطنين متساوين مع البقية في الحقوق والواجبات، بل بوصفهم جزءاً من جماعة مختلفة، كما هو حال المسيحيين واليهود في بعض البلاد المسلمة والأكراد في البلدان العربية، والشيعة في البلدان التي أغلبيتها سنية والسنة في الأقطار ذات الأكثرية الشيعية وهكذا»[1].

الشيعة جزء في هذا العالم ويريدون التعبيرعن هويتهم الخاصة، وتعريف العالم بها، بدلا من أن يقوم الآخرون بتعريفهم..فإن تقديم هوية مخالفة من قبل الشخص يعتبر تزويرا، فكيف يكون الأمر حين تقدم هوية كاذبة عن مجتمع يقدر بمئات الملايين؟

(١) السيف؛ د.توفيق: مقال في مجلة الكلمة، عدد ٥٩، النسخة الالكترونية ١٤/٦/٢٠٠٨م.

الصورة الكاذبة التي عُرّف الشيعة بها للآخرين هي هوية مزورة (شـملت العقائد والأخلاق والتكوين الجسدي فهم (!) في ليلة الطفية كـما زعـم مخالفوهـم يختلطـون رجالا ونسـاء ويـزني بعضهـم ببعض! وهم ليسـوا كخلقة باقي الناس بل كل شـيعي يحمـل ذيلا في مؤخرته! كالحيوانات وهم سـيئو الأخلاق فلا ينبغي أن تؤاكلهم لأنهم يبصقون في الطعـام والـشراب الذي يقدمونـه إلى غيرهم!! وهكـذا ينتج الخيال المريض المعادي ما شاء من الصفات الكاذبة..

ولنأخذ بعض هذه الكلمات المنشـورة في كتب مطبوعة بأموال قذرة سياسيا، فهذا ابراهيم بن سليمان الجبهان يقول في كتابه في تبديد الظلام[1]:

* « قد لا يصدق القارئ الكريم أن نكاح الأم عندهم هو من البر بالوالدين، وأنه عندهم من أعظم القربات ».

* « يمـد الشـيعي إليك يده مصافحـاً، ولكن ليشـغلك عن اليد الأخرى التي امتدت إلى جيبك ».

* « كل مـن يولد في أيام عاشـوراء فهو سـيد، وكل من حملت به أمه في أيام عاشوراء فهو سيد حتى ولو كان حملاً غير شرعي ».

وإذا كنـا سـنعطي بعض العـذر للمؤلفين السـابقين الذين كتبوا عـن التشـيع في وقـت لم تكـن مصادرهـم الروائيـة أو العقديـة متوفرة للباحثـين، مثلما قال المقريزي: « ومن فرق الروافض الحلوية والشـاعية والشريكيـة يزعمون أن عليا شريك محمد ص والتناسـخية القائلون ان الأرواح تتناسـخ واللاعنـة والمخطئة الذين يزعمـون أن جبرئيل أخطأ والإسـحاقية والخلفية الذين يقولون لا تجـوز الصلاة خلف غير الإمام

(١) نقلا عن الحقيقة الضائعة للشيخ معتصم سيد أحمد ص ٢٣٣.

والرجعيـة القائلـون سـيرجع علي وينتقم مـن أعدائـه والمتربصة الذين يتربصـون خروج المهدي والآمرية والجبية والجلالية والكريبية اتباع أبي كريب الضرير والحزنية اتباع عبد الله بن عمر الحزني »[1].

أو نتفهم أن يقوم مستشرق أجنبي بذكر كلمات سيئة عن التشيع، ضمـن أجواء الصراع بين المسـلمين والمسـيحيين، فـما لا نتفهمه هو أن يقوم بعض المسـلمين بأخذ كلمات ذلك المسـتشرق وكأنهـا آية منزلة أو سنة محكمة، ويتناقلونها ويفصلون فيها ويخيطون!.

فهـذا « وليـم الصـوري، أهـم المؤرخـين المسـيحيين للحملات الصليبية في القرن الـ١٢ الميلادي، الذي كان له دور مؤثر في نشر صورة سـيئة عـن الشـيعة، حين نسـب إليهم الاعتقـاد بخطأ جبريـل في تبليغ الرسـالة وأنها قام بإيصالها إلى محمد بن عبد الله بدلا من تكليفه الأصلي بإيصالها إلى علي بن أبي طالب!.

كما يعتبر جوزف جوبينيو أهم من ربط بين التشيع وديانات فارس ما قبل الإسلام. ففي كتابه (ثلاث سنوات في آسيا) يرجع جوبينيو مبدأ تبجيـل الأئمـة إلى تقديس كهنة الزرادشـتية. كما اعتـبر جوبينو في كتابه (ديانات وفلسفات آسيا الوسطى) الفكر الشيعي حركة انشقاقية وثأرا مبطنا لـ(الاحتلال العربي لأرض الفرس) »[2].

فهل يمكن أن يُتفهم كلام (الدكتور) أحمد أمين المصري في كتابه فجر الإسـلام عندما يقول: « والحق أن التشـيع كان مأوى يلجأ إليه كل

(١) نقله عنه السـيد محسـن الأمين في أعيان الشـيعة ١ / ٢٣: أقول: لا شـك في أن بعض هذه الفرق التي يذكرها لم توجد إلا في ذهن المقريزي ولا وجود لها في مكان آخر!.
(٢) مجلة المعرفة ٢/ ١/ ١٤٢٨هـ، في موقع الجزيرة نت.

مـن أراد هدم الإسـلام لعـداوة أو حقد ومـن كان يريد إدخـال تعاليم آبائـه من يهودية ونصرانية وزرادشـتية وهندية ومن كان يريد اسـتقلال بـلاده والخروج عـلى مملكته كل هؤلاء كانوا يتخـذون حب أهل البيت ستارا»[1]؟.

ومـع اعتـذاره بعـدم وجـود المصـادر عندمـا عوتـب في زيارته للنجف، كما نقل ذلك الشـيخ محمد حسـين كاشف الغطاء، وهو (عذر أقبح من ذنب) إلا أن مثل هذه النتيجة التي توصل إليها لم تكن تحتاج إلى مصادر، وإنما هي رأي، بل تحريض للحاكمين على شيعة أهل البيت!.

الآثار المعاكسة للهوية المزورة:

غـير أنـه كان لهذه الهويـة المزورة بعـض النتائج المعاكسـة لإرادة ناشريهـا، حيـث دفعـت الكثـير مـن النـاس إلى التفتيـش عـن الشـيعة والتشـيع، ولقد قال أحد المتابعين لحركة التحول المذهبي في مقابلة معه بأن أحد الأسـباب الرئيسـة للتحـول المذهبي هو الكذب على الشـيعة، بزعم أن لديهم قرآنا خاصا، وأنهم مخلوقون بشكل خاص، وأنهم سيئو الأخلاق وأنهم.. وأنهم، فإذا عايش غير الشيعة الإنسان الشيعي ورأوا فيـه خلاف ما قيل فإن ذلك يزعـزع كل التعبئة المخالفة له، ويدعوه إلى التعرف والاطلاع على العقيدة الشيعية..

أقول: الشـاهد على ذلك هو قصص المتحولين مذهبيا والمنشـور منهـا غيض من فيض وكأن الشـاعر جعل هذا المثـال أمامه تماما عندما أنشأ قوله:

---

(١) فجر الإسلام ص ٢٧٦

أتيت سروري إذ أردت مساءتي

وقد يحسن الإنسان من حيث لا يدري

ولو أردنا أن نذكر أمثلة كثيرة لكان ذلك يسيرا، لكنه يخرج بنا عن أصل الحديث، وإنما نريد الإشارة، فلنذكر مثال: الشيخ حسين الكاف من اندونيسيا وهو معاصر وله صفحة على موقع دليل الحق في الانترنت، حيث كانت بدايات اطلاعه على التشيع من خلال كلام صاحب التحفة الاثنى عشرية المتعصب في كلامه ضد الشيعة.. فبعد أن انتهى من المعهد الديني، قال له استاذه بأن من أراد أن يكون عالما فلا بد أن يقوم بتوسيع دائرة معارفه وعدم الإكتفاء بدراسة المذهب الذي يرثه الإنسان من آبائه، فلهذا بادر بعد اتقانه لمباني واسس مذهب الإمام الشافعي إلى مطالعة كتب باقي المذاهب الإسلامية.

فسأل عن الكتاب الذي يستطيع من خلاله أن يتعرّف على مذهب التشيّع، فحذروه ثم أرشدوه إلى قراءة كتاب (التحفة الاثني عشرية) تأليف الشاه عبد العزيز الدهلوي.

يقول الأخ حسين: تناولت الكتاب فالفيت كاتبه معادياً للتشيع، بحيث دفعه هذا الأمر إلى الخروج عن حد الإعتدال في تقييمه لهذا المذهب ووجدته ينسب للشيعة آراء شاذه بحيث يستنفر منها العقل من قبيل القول بألوهية علي بن أبي طالب أو نبوته أو خيانة الأمين جبرائيل في إعطاء الرسالة الإلهية وغير ذلك..

هذا الأمر جعله يفتش عن الشيعة من مصادرهم الأصلية لا كما يقرؤها مخالفوهم، وانتهى به الأمر إلى ركوب سفينة أهل البيت ومشايعتهم..

إنـه إذا كان يمكن أن تغطى الحقائق في وقت سـابق، فإن التطور التقني الذي حول العالم إلى قرية واحدة يتجول الإنسان في أزقتها بفضل الانترنت، سـاعة يشـاء وبالنحو الذي يريد.. جعل مـن تغطية الحقائق وسيلة غير نافعة أبدا.

على أي حال كان ما سبق شيئا عن الهوية المزورة التي قدمت عن الشيعة والتشيع، وبعض آثارها المعاكسة..

فما هي مكونات الهوية الشيعية؟.

المقصود مـن مكونات الهوية هنا هو: العلامـات التي تترافق مع وجـود الكيان المحدد، سـواء منها العقديـة أو الاجتماعيـة.. ولهذا فإنه لا تدخـل فيها بالضرورة الأمور التفصيلية، كبعض المسـائل الفقهية أو العقديـة (كالمتعـة، والرجعـة). وبمعنى آخر هي تلك الإشـارات التي يتعرف من خلال وجودها في مجتمع على وجود أصحاب هذا المنهج.

فمن تلك المكونات:

١- الإيـمان بالإمامـة المنصوصـة المعصومـة: يتميـز شـيعة أهل البيـت الإماميـون باعتقادهم باثني عشر إماما معصوما (أولهم علي بن أبي طالب، وآخرهم محمد بن الحسـن العسـكري)، قد تم النص عليهم وتعيينهـم مـن قبـل النبي ﷺ وهو في ذلـك مبلغ عن ربـه، وقد أقام علماء الشـيعة الأدلة الكافية من العقل والنقل على هذا الأمر وألفوا فيه الكتب[1].

---

(١) لمـن أراد التفصيل يمكنه مراجعة: الشـافي في الإمامـة للشريف المرتضى، والألفين في إثبات إمامة أمير المؤمنين للعلامة الحلي ومنتخب الأثر للشيخ لطف الله الصافي، وفي رحاب العقيدة للسيد محمد سعيد الحكيم.. وغيرها من الكتب.

ولذلـك فلا معنى لاحتمال فراغ قيادي في هذه الجهة لأن القضية محسومة سـلفا، والأشخاص معينون مسبقا ومعروفون..وليست هناك حالة انتظار لانتخاب شـعبي مثلا أو خروج بالسيف أو غير ذلك..فـ: «**الحَسَنُ وَالحُسَيْنُ إِمَامَانِ قَامَا أَوْ قَعَدَا**»[1].

ولا يقصـد مـن الإمامة هنـا تولي الحكومـة، فإن علـماء الإمامية يفصلون بين أصل النصب الالهي لمقام الإمامة وبين الممارسـة الخارجية للحكـم.. فقـد تجتمع الحالتان كـما حصل للامام علي بـن أبي طالب في السـنوات الخمـس الأخـيرة من عمره حيـث بويع بالخلافـة الظاهرية، وكان إمامـا قبـل ذلـك منـذ وفـاة النبي محمـد صلى الله عليه وآله وسلم.وقـد تنفصل كما هـو الحال بالنسـبة لباقـي الائمة عليهم السلام، غـير أن ذلك لا يؤثـر في إمامة الإمام..

ولـو أردنـا أن نمثـل مثـالا عرفيـا تقريبا لفهـم الأمـر، في قضية المرجعيـة فقـد تجتمع الفقاهـة والمرجعية مع قيـادة البلـد الفعلية كما في حـال آية الله السـيد الخمينـي قدس سره، وقد تنفصـل المرجعية عـن القيادة السياسـية والخارجيـة كـما في حال آية الله السـيد الخوئـي قدس سره، غير أن القيادة السياسية بنفسها لا تؤثر في مرجعية الشخص، فلا توفرها يعطي للشخص مرجعية أكبر، ولا افتقادها يمنع الشخص من المرجعية!.

وحيـث أن الإمـام في منصبـه مبلـغ عـن الله عز وجـل، وقد أمر النـاس بطاعته بشـكل مطلق في قوله تعـالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾[2]، فـلا بد أن يكـون معصوما، وإلا كان

(١) بحار الأنوار، ج٤٤، ص٥.
(٢) سورة النساء: من الآية ٥٩

الأمر بطاعته بشـكل مطلق مع عدم عصمته واحتمال خطئه أو انحرافه إغراء للناس بالجهل وإيقاعا لهم في المفسـدة. وهي مقتضى آية التطهير، وحديث: «**لَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْض**»[١].

وأكدت العصمةَ سـيرتُهم التاريخية التي عايشها المعاصرون لهم، وهنـا لا يحتاج الأمر إلى الاسـتدلال العقلي أو التعـرض إلى الروايات.. فإنـه لم ينقـل التاريخ ولو بخبر كاذب أن الإمـام عليا عَلَيْهِ السَّلَامُ قد ارتكب ذنبـا أو خطيئـة. ومـع أنـه كان في مقابلـه أعـداء حاربوه كأهـل الجمل ومعاويـة والخـوارج، وبعضهـم كالخوارج كفـروه، لكـن لم يقولوا إنه منحـرف عمليـا! أو خائن في المال مثـلا، أو مرتكب للمعاصي! وهكذا الحال بالنسبة إلى بقية الأئمة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

إن الإيـمان بفكـرة الإمامـة المعصومة والمنصوبة هـو أهم مميزات ومكونـات الهويـة الشـيعية فهي الفارق الأسـاس بين مدرسـة الخلافة ومدرسـة الإمامة، أو بين الاتجاه الرسـمي السـني وبين الاتجاه الخاص الشيعي. كما أنها تميز الشيعة الإمامية عن بقية الفرق الشيعية كالزيدية[٢] والاسماعيلية والواقفة.

---

(١) أصول الكافي: ج٢، ص٤١٤.

(٢) الزيدية يؤمنون بإمامة علي بن أبي طالب والحسن والحسين وعلي بن الحسين وهم إلى هنا يتفقون مع الإمامية لكنهم بعد ذلك يجعلون الإمامة في زيد بن علي بن الحسـين، ويسلسلونها في أبنائه، وهم موجودون الآن بصفة خاصة في اليمن.

أما الاسـماعيلية فهم يؤمنون بالأئمة الخمسـة المذكورين وبمحمد بن علي الباقر وبجعفر بـن محمـد الصادق، ثم يجعلون الإمامة في ابنه اسـماعيل وتتسلسـل الإمامة في نسـل اسماعيل.. وهم موجودون في جنوب السعودية وشمال اليمن، وبعض أنحاء الهند.

أما الواقفة فهم الذين وقفوا على موسى بن جعفر الكاظم ولم يقبلوا إمامة علي بن موسى الرضا، وهؤلاء كانوا فئة تاريخية لا وجود لها اليوم أصلا.

٢- الإيمان بالإمام المهدي محمد بن الحسن العسكري عجل الله تعالى فرجه: باعتباره الإمام الثاني عشر الموجود بالفعل، المولود في سنة ٢٥٥ هـ، وهو التاسع من ولد الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب كما هو في النص الوارد، وهو المخلص والمنقذ للعالم، والمنتظر من قبل جموع المؤمنين لكي يملأ الله به الأرض عدلا كما ملئت ظلما وجورا.

إن الاعتقاد بالمهدي عقيدة إسلامية عامة، ولكن الإيمان به بهذه التفاصيل يعد خاصية شيعية وعلى هذا الاساس تتم ممارسات عندهم في التعلق به والانتماء إليه، ودعاء الله عز وجل بتعجيل فرجه، وإظهار احترامه عند ذكره، والتعلق بالأمل المتمثل في ظهوره.. بل يؤمنون بمعايشته لهم ومناصرته إياهم، ولهذا الاعتقاد والإيمان آثار تربوية استثنائية.

وعلى هذا الأساس فلا معنى لأن يقول شخص إنه شيعي لكن لا يؤمن بالإمام المهدي محمد بن الحسن العسكري بالتفاصيل المذكورة آنفا فإن هذا مثل أن يقول شخص أنا مسلم ولكن لا أومن بمحمد بن عبد الله رسولا ونبيا..

الإيمان بالإمام المهدي عجل الله فرجه، نوع اعتراض على الواقع السيء، وهو مصدر للأمل في الخير والتغيير، وإيمان باستمرار التخطيط الالهي للبشر وأنهم لم يتركهم هملا[١].

٣- محورية القضية الحسينية:

يتميز الشيعة في كل مناطقهم بجعل القضية الحسينية محورا جامعا وعنصرا معبرا عن وجودهم، بل هي أفضل إعلان عن الهوية

(١) للتفصيل يمكن مراجعة موسوعة الإمام المهدي بأجزائها الأربعة للشهيد السيد محمد صادق الصدر.

المشـتركة والجامعة بينهم ولذا يقال: إن عاشوراء هو يوم إشهار الشيعة لهويتهم الخاصة مع أنها قد تثير استغراب الآخرين، لكن الهوية الخاصة هي هكذا.. تجمع أصحاب الهوية وتميزهم عن غيرهم..

إن لاهـور الباكسـتانية، ولكنهـو الهنديـة، وخراسـان الايرانية، وهالـكالا التركيـة، وكربـلاء العراقية،وباميـان الأفغانيـة، والمنامـة البحرانيـة، والنبطيـة اللبنانيـة، والأحسـاء والقطيف السـعودية، كلها في هـذا اليوم تتحدث بلسـان واحد وإن اختلفت لغاتها، وتسـير بنفس المشاعر و «لا ريب في أن مشاهد عاشوراء وأصواتها تسبي العقول قبل القلوب، فهي شـعيرة زاخـرة بالرمزية والعواطف الجياشـة كما أنها من الطقوس الروحية والطائفية في العمق، ذلك أنها تعرف بالشـيعة وتجدد ارتباطهم بمعتقدهم وبيئتهم»[1].

شـهادة الإمام الحسين عليه السلام في العاشر من شهر محرم سنة ٦١هـ في كربلاء، بالنسـبة لشـيعة أهـل البيت عليهم السلام ليس حدثـا تاريخيا انتهى بنهايـة يومـه، وإنما هو قضية متجددة ومسـتمرة في كل سـنة. وتوظيف دائم لهذه الشهادة في تجديد الانتماء، وإظهار الهوية، والتشكل الاجتماعي والسياسي. ولهذا السبب ربما كانت الحرب الدائمة على القضية الحسينية ومـا يرتبـط بها من ممارسـات وشـعائر منذ أيـام الأمويين والعباسـيين والأتـراك وإلى عـصر الدول الحديثـة.. حيث التفت أولئـك الحكام إلى الأثر الذي تصنعه تلك القضية بممارساتها وشعائرها.

٤- الارتباط بالمرجعية الدينية:

أصل الرجوع إلى الخبير والعالم مما تطابقت عليه العقول، وأكدته

(١) د. ولي نصر، صحوة الشيعة، ص ٢٩.

النصوص الشرعية، و: ﴿فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1]، و﴿وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾[2]، و« **فَإِنَّهُمْ حُجَّتِي عَلَيْكُمْ وَأَنَا حُجَّةُ الله..** »[3].

وهذا المعنى كان موجودا لا شك حتى في زمان الأئمة عليهم السلام، فقد كان يحيلون من لا يصلون إليهم إلى فقهاء رواتهم، فهذا عبد الله بن أبي يعفور، يقول للإمام جعفر الصادق عليه السلام: « إِنَّهُ لَيْسَ كُلَّ سَاعَةٍ أَلْقَاكَ وَلَا يُمْكِنُ الْقُدُومُ وَيَجِيءُ الرَّجُلُ مِنْ أَصْحَابِنَا فَيَسْأَلُنِي وَلَيْسَ عِنْدِي كُلُّ مَا يَسْأَلُنِي عَنْهُ؟.

فَقَالَ عليه السلام: **مَا يَمْنَعُكَ مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ مُسْلِمٍ الثَّقَفِيِّ فَإِنَّهُ سَمِعَ مِنْ أَبِي وَ كَانَ عِنْدَهُ وَجِيهاً** ».[4].

وهذا عبد العزيز بن المهتدي يقول للرضا عليه السلام: إِنِّي لَا أَلْقَاكَ فِي كُلِّ وَقْتٍ فَعَمَّنْ آخُذُ مَعَالِمَ دِينِي؟. فَقَالَ عليه السلام: **خُذْ عَنْ يُونُسَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ** »[5].

ومثله الجواب للحسن بن علي بن يقطين.. ويسأله علي بن المسيب: « شُقَّتِي بَعِيدَةٌ وَلَسْتُ أَصِلُ إِلَيْكَ فِي كُلِّ وَقْتٍ فَمِمَّنْ آخُذُ مَعَالِمَ دِينِي قَالَ عليه السلام: **مِنْ زَكَرِيَّا بْنِ آدَمَ الْقُمِّيِّ** »[6].

نعم تطورت المرجعية الشيعية من صورتها البسيطة الأولى،

---

(١) سورة النحل: ٤٣.
(٢) سورة التوبة: من الآية ١٢٢.
(٣) وسائل الشيعة: ج٢٧، ص١٤٠.
(٤) وسائل الشيعة: ج٢٧، ص١٤٤.
(٥) وسائل الشيعة: ج ٢٧، ص١٤٨.
(٦) وسائل الشيعة: ج٢٧، ص١٤٦.

إلى صـورة أكثـر تقدمـا وأصبحـت في مسـتوى قيـادة الطائفة سياسـيا واجتماعيـا، ولم يعـد الأمـر مجرد رجـوع في القضايـا الفقهيـة التفصيلية وحققت انجازات مهمة في تاريخها القديم والحديث. منها:

* في الموضوع الديني معرفة الشريعة واستنباط الأحكام (الضمانة التشريعية): وأهمية هـذا الجانب واضحة، لكونه يمثل الطريق الواصل بـين الله وبين العبـاد، وهو خلاصة جهود الأنبياء والمرسـلين (على نبينا وعليهم افضل الصلاة والسلام).

ومنها المحافظة على الكيان الإسلامي عموما والشيعي على وجه الخصـوص لكيلا يندثـر، وهذا الذي جعل المجتمع الشـيعي متماسـكا في هـذه الجهـة، بنحـو لا مثيل لـه.. وقد ترتـب النظـام المرجعي خلال ألف سـنة من الزمان على أسـاس ارتباط الناس بـه، من خلال الوكلاء والحوزات العلمية..

ومنها: قيادة العمل ضد الانحراف بالنحو المناسـب لكل مرحلة حيـث كانـت المرجعية الشـيعية عنصر الانقـاذ الاجتماعـي في مواجهة المشـاكل التـي ابتليت بها الأمـة. واجهت تلك المشـاكل بحكمة عالية، فانظر إلى ما صنعه شـيخ الطائفة محمد بن الحسـن الطوسي عندما كانت بغـداد مهـددة باحتراب داخلي، سـعّره قيام بعض الطائفيـين والغوغاء بإيقاد الحالة الطائفية، وأحرقت مكتبة شـيخ الطائفة وكرسي تدريسـه، وكان يمكـن أن تحـدث الفتنـة فكان أن اختار الشـيخ الانسـحاب إلى النجـف الأشرف، وبينـما لم يتفهـم بعض مـن حوله هذا القـرار ورأوه انسـحابا غـير مـبرر، كان ذلك القرار منشـأ لخـير كثير ومبـدأ للحوزة العلمية الدينية الكبرى في النجف.

وعندما كانت بلاد إيران مهددة من قبل البريطانيين بالسيطرة على اقتصادها، من خلال قرار سلاطينها باعطاء امتياز احتكار التبغ لبريطانيا، قام الميرزا محمد حسن الشيرازي ﰅ الكبير بمقاومة ذلك واستطاع إلغاء ذلك بفتوى تصرح بأن استعماله يعتبر محاربة لصاحب العصر والزمان.. ومثله ما فعله الميرزا محمد تقي الشيرازي ﰅ في مقاومته للبريطانيين في ثورة ١٩٢٠م، في العراق.

وقد شهد عصرنا حركة عظيمة للمرجعية الدينية تمثلت في الثورة الإسلامية التي قادها الإمام الخميني ﰅ وانتصرت عام ١٩٧٩م، وأسقط فيها النفوذ الغربي، وأحل محل ذلك الحكومة الإسلامية.

واليوم نشهد حركة عظيمة تبين دور المرجعية الشيعية في حياة هذا المجتمع، ما حدث في النجف الأشرف حيث أقدمت المرجعية الدينية ممثلة في آية الله السيد السيستاني (حفظه الله) على إخراج الجميع من المأزق الصعب.

هذا الارتباط بالمرجعية الدينية يجعل المجتمع الشيعي محدد القيادة غالبا، فيقطع الطريق على المغامرين الذين يتطلعون لقيادة الطائفة، ولذلك قال صاحب كتاب (الشيعة العرب): «إن مشكلة الليبراليين في المجتمع الشيعي أنهم لا يستطيعون أن يكون بديلا عن القيادة الدينية له، لأن المجتمع مبني على هذا الأساس»[1].

لا نعرف في مجتمع من مجتمعات المسلمين، ارتباطا قويا بهذا النحو الذي يرتبط فيه الشيعة بمرجعياتهم الدينية.

---

(١) فولر جراهام: الشيعة العرب: المسلمون المنسيون.

محاربة الحكومات للهوية الشيعية

لماذا تعارض الحكومات المتعاقبة على بلاد المسلمين العزاء على الحسين؟ ولماذا تخالف الاعتقاد بالإمامة؟ ولماذا لا يعترف بالمذهب في أحكامه الفقهية بالنسبة لأتباعه؟ وما الذي يضر الحاكم لو أن تقسيم الارث كان بهذه الصورة؟ بدون عول أو تعصيب؟ وماذا يؤثر في سلطانه لو أن الناس بكوا على الحسين أو لبسوا السواد؟.

ولماذا تجد هذا الأمر في أكثر فترات التاريخ؟ جاء الأمويون ومنعوا ما يرتبط بالحسين، وجاء العباسيون، ثم الأتراك، ثم الدول الحديثة في العالم الإسلامي.. لا تنظر بعين الود إلى هذه الأمور؟.

القضية أبعد من ذلك..

القضية هي سعي الحكومات لإلغاء الهوية التي تعبر عنها هذه الممارسات!.

تزعم الحكومات أن الخصوصية عامل تفتيت فتسعى لإلغاء الخصوصيات حتى يكون الجميع بلون واحد! (المشكلة أنها تفرض خصوصيتها على الآخرين!!).

الأشكال متعددة والغاية الإلغاء للهوية:

١ - رفض الفقه والمذهب: المفارقة أن الشيعة يسمون بالرافضة بينما هم في الواقع المرفوضون من قبل السلطات! وإلا ماذا يعني أن يمنع الإنسان من التعبد بالطريقة التي يراها صحيحة! ماذا يعني عدم الاعتراف بمذهب يدين به ما لا يقل عن ٢٥٪ من المسلمين؟ الامم في

عالمنا اليوم تتحد وتجتمع لتتحول إلى قوة كبيرة، ونحن نسـلخ من أمتنا ما يقارب ٤٠٠ مليون مسلم، فنقول لهم لا نعترف بكم!

«لقد سـاهم الشيعة في تأسيس باكسـتان، بحماسة فقد دعم الآقا خـان، والتجـار الكبار التحول، حتى أن مؤسـس باكسـتان (محمد علي جناح) كان شـيعيا اثني عشريا وكانوا يشـكلون ٢٠٪ من سـكانها (أي ٣٠ مليـون)، وذو الفقـار بوتـو كان شـيعيا، وبعد أن تمكـن هذا ضمن عمليـة ديمقراطيـة، حدث انقلاب عسـكري عليه من قبـل ضياء الحق وضبـاط آخرين وأعدم، تحت تأثير متطرفين دينيين، ورجع الشـيعة إلى المربع الخلفـي الهامشي.. بل تمت محاولة فرض المذهب الآخر (الحنفي) على الشيعة في أحوالهم الشخصية ومواريثهم ونكاحهم»[1]!.

مـاذا يعني الدمج القسري، وإلغـاء الثقافة الخاصة؟ ومتى كانت تنفـع؟ لـو نفعـت في مـكان لنفعـت في الاتحـاد السـوفيتي السـابق مع المسـلمين!! ولنفعـت في العراق بعد أجيـال من القهـر والقسر، ها هو الحسين يحشد ملايين البشر مشاة إليه!

٢- منع الشـعائر والمواسـم: لقد كان كل شيء يشـير إلى الحسين ممنوعـا في بعض الفـترات! الأمويون، ثم العباسـيون، ثـم الأتراك، ثم الـدول الحديثة، والتي بني بعضها على اسـس علمانية والمفروض أنها لا شـأن لهـا بالقضية الدينية لكـن الأمر إذا وصل إلى هـذه الجهة وجدتهم يصبحون أكثر طائفية من الطائفيين.

٣- إثـارة الغبـار والشـبهات حـول المرجعيـة الدينيـة وحـول الرجـوع إليهـا: فقد أثار الأعداء قضية الـولاء الوطني في وجه من كان

(١) نصر، ولي:صحوة الشيعة، ص٨٠.

يؤمـن بالمرجعية الدينية ويبـدو أن البريطانيين هم أول من أثار أعجمية المراجـع لما قاوموه.. وبطبيعة الحـال لم يكن البريطانيون ليقبلوا بالتفاف الناس حول مرجعية عربية، ولكن يقضون على المراجع غير العرب بهذا الاسم ويضيقون الخناق على المجتهدين العرب باسم آخر!!.

ومن ذلك أيضا الاتهام بالفساد المالي، والسعي من أجل ذلك، فقد كانـوا يحاولون جهد إمكانهـم أن يتوصلوا إلى توزيع المال على الحوزات عـبر العلماء بعناويـن مختلفة، ولكن كانت المرجعيـة أذكى، فرفضوا أي نوع من أنواع التعامل مع البريطانيين والحكومات الفاسدة!.

يقـدر بعـض الباحثـين[1] ما كان يسـتلمه الشـيخ الأنصاري من الحقوق الشرعية (من أخماس وغيرها) بـ (٢٠٠) ألف تومان في الوقت الـذي كانـت ميزانيـة الحكومـة القاجارية في تلـك الفـترة (٣) ملايين تومان.

أقـول: هذا يعني أن ما يصله كان بحـدود ٩٪ من ميزانية الدولة كلها ومع ذلك كانت تحتاج زوجته الحامل المقرب إلى مقدار بسـيط من التمر فلا يجد من ماله الشـخصي مـا يوصله إليها.. فانظر إلى هذا الزهد العلوي وتأمل!.

(١) نقاش ؛ اسحاق في شيعة العراق ص ٢٩١



عدد الشيعة في العالم

تختلف التقديرات قلة وكثرة، فالشيعة يكثرون من عددهم فيقولون هم نصف المسلمين! وغيرهم يقللون العدد إلى حد أنه قد قيل إن عددهم هو ٧٠ مليون[1]!.

ـ ما هو سبب التقليل والتكثير في التقديرات؟.

قد يكون من أسباب التفاوت الكبير في التقديرات، عدم وجود إحصاءات في الأساس في بلادنا المسلمة، أو إخفاء بعض الإحصاءات وعدم اعتمادها إذا كانت تخالف التوجهات السياسية لأنظمة الحكم.. وأقل منها تلك الإحصاءات التي تعتمد على الفرز والتحديد المذهبي فليس معقولا أن النظام الذي ينكر وجود مواطنين من مذاهب غير مذهب الحاكم، أن يقوم بإحصاء دقيق لهم، لأن ذلك يترتب عليه

(١) في تصريحه لموقع العربية.نت، المنشور بتاريخ ٠٩ صفر ١٤٣٠هـ - ٠٤ فبراير ٢٠٠٩م قال مفتي الجمهورية المصرية الشيخ علي جمعة، بأن الشيعة كانوا دائما جزءا لا يتجزأ من الأمة الإسلامية، لكنهم يشكلون أقلية لا تتعدى نسبتها ١٠٪ من إجماليّ عدد المسلمين!!بينما قدرهم فرانسوا تويال الباحث الفرنسي في كتابه (الشيعة في العالم: صحوة المستعبدين واستراتيجيتهم) صدر سنة ١٩٩٥ م بمائتي مليون نسمة أي ١٠ - ١٢٪ من المسلمين هذا مع أنه أسقط بشكل كامل في ملحق كتابه بعض الدول بشكل كامل مثل نيجيريا التي تحتوي على عدة ملايين. أما المحقق الشيخ محمد صادق الكرباسي في دائرة المعارف الحسينية فقد رأى أن عددهم يصل إلى ٣٩٤ مليون مسلم، وبالتالي فهم يشكلون نسبة ٢٥٪ من عموم المسلمين.. لكنهم بالقياس إلى كل فرقة من فرق المسلمين يعتبرون أكثرية.

متواليات سياسية لا يريد أن يتورط فيها!!.

وهـذه الجهة راجعـة إلى مشـكلة الإحصاءات في بلاد المسـلمين عموما..

كـما أن الدوافـع المذهبيـة لـكل مـن الطرفـين تدفـع إلى التقليل أو التكثـير كـما لا يخفى.غير أن هناك أسـبابا أخر تجعل مـن التقديرات متفاوتة ومختلفة.. ومنها:

١- تصـور البعـض أن الكثرة تتناسـب مع الحـق والمشروعية.. فيقولـون بأن الدليـل على صحة ما لديهم أن النـاس كلهم يعملون هذا العمل أو أنهم على هذا المذهب، والقلة خلاف ذلك! وأنه هل يعقل أن يكون كل هؤلاء على باطل، وأن العدد القليل هم أهل الحق؟.

ولا ريـب أن هذه الفكرة خاطئة بحسـب المعايـير القرآنية حيث ذمت الكثرة في القرآن، ولم تعتبر القلة شتما أو عيبا بل ربما كان العكس.. إذا اتبعـت القلة الهدى، وحالفت الأكثرية الباطل. بل حتى الأكثرية لو كانت على الحق فهذا لا يعطيها الميزة لأنها أكثرية وإنما لأنها أهل الحق.

ولم تكـن الأكثريـة أيضا مقياسـا للحق.. فلا يمكن الاسـتدلال عـلى كون جهة أهل الحق لأنهم أكثـر، والجهة الأخرى بأنهم أهل باطل لأنهـم أقـل! ولا أن الكثرة يجب أن يأخذوا كل شيء لأنهم كثرة، والقلة يحرمون لأنهم أقل!.

بـل ربـما مدحـت القلة وذمـت الكثـرة لبعض الجهـات: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴾[1]، و﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنۡهُمۡ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ

(١) المائدة: من الآية ٤٩.

﴿وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1]. وفي المقابل هناك مدح للأقلية، والقلة: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[2]. ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾[3]، ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[4]، ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾[5]. ونحن هنا لا نريد أن نثبت أن الأكثرية هي بالضرورة خاطئة وذلك لكي تنزع عن الكثرة كونها ملازمة للحق[6].

وهي فكرة خاطئة بحسب الواقع الخارجي كذلك فلو أردنا أن نطبقه في دائرة الأديان لانتهينا إلى أن المسيحيين وهم في بعض التقديرات أكثر من المسلمين في العالم يجب أن يكونوا على الحق دون المسلمين.. ولا شك أن الالتزام بهذا النظرية غير ممكن.

٢- ربط الحقوق الأساسية بالانتماء إلى الكثرة أو الأكثرية، فلو فرضنا أكثرية في بلد في مقابل أقلية، فإن بعض الناس يتصورون أن من ينتمي للأكثرية لا بد أن يحصل على الحقوق الأساسية تامة، بخلاف من ينتمي إلى القلة أو الأقلية، فيمكن انتقاص حقه!

ومن الواضح أن هذه الفكرة غير سليمة، وذلك أن مصدر الحقوق إما هو مصدر ديني كبعض الحقوق الثابتة للإنسان بوصف كونه مسلما

(١) المائدة:٦٢.
(٢) هود: من الآية ٤٠.
(٣) البقرة: من الآية ٢٤٩.
(٤) البقرة: من الآية ٢٤٩.
(٥) البقرة: من الآية٢٤٦.
(٦) وهذا لا يتنافى مع إيماننا في قضايا السياسة والتدبيرات الخارجية بالديمقراطية ورأي الأكثرية فيها. وسيأتي مزيد توضيح في موضوع واقع الأقلية وثقافة الأقلية.

مثل (فإذا قالها أي الشـهادتين عصـم ماله ودمه) أو خارجي يعتمد على فكـرة ملك الأرض (فملكيـة الأرض هي مصدر للحقوق السياسـية. وذلك أن الدولة -أيًّا كانت صفتها- لم تخلق البشر ولا أرضهم، وهي لم تجلب هؤلاء المواطنين من أماكن أخرى وتعمر أرضهم وتسكنهم فيها. بعبـارة أخرى فإن الأرض التي تخضع لسـلطان الدولة هي ملك أصلي للذين يعيشـون فوقهـا. وبموجب هذا الملك فإنهـم وحدهم أصحاب الحـق في إدارة مواردهـا والتـصرف فيها. الدولة لا حـق لها في أي شيء مـن تلـك التصرفـات إلا إذا اتفق أولئـك المالكون عـلى تفويضها هذا الحـق. ملكية الأرض أعلى وأسـبق -مـن حيث قابليتهـا لتوليد حقوق التـصرف- من الدين والقانون والتوافقـات، وإنما تصبح أحكام الدين والقانـون سـارية إذا وافـق المالـك على الخضـوع لهـا)[1]، أو أن مصدر الحقوق مبني على اعتبار سياسي كامتلاك الجنسية الخاصة بالبلد.

وأما كونه ينتمي إلى الكثرة أو القلة، فلا ربط له بتمتعه أو حرمانه من حقوقه..

٣- الاعتقـاد بأن ظهر القلة ضعيف فيمكن تصفيتهم أو سـلبهم أو التعـدي عليهم، وهذا هو (منطق العصابات المتحاربة) وليس منطق العالم المتحضر والدول القائمة.

لم يحصـل عـلى مسـتوى العـالم الإسـلامي إحصـاء على اسـاس مذهبـي.. لكـن يمكـن القـول أن الشـيعة يصلـون إلى ٢٥٪ مـن عدد المسـلمين.. وهذا إنما يشـكل حجم الوجودات الأصلية للتشـيع.. ولا يشـمل تقدير الأعداد الحادثة التي تشـيعت وتحولت، وهي وإن لم تكن

---

(١) السيف، توفيق: الكلمة العدد (٥٩) ربيع ٢٠٠٨/ ١٤٢٩هـ.

ذات قيمة عددية بحيث تؤثر في النسبة المذكورة تأثيرا واضحا إلا أنها ذات دلالة تعبيرية تشير إلى نشاط وحيوية هذا المذهب وقدرته على الانتشار والاستقطاب..

كما أن العدد سواء كان بنحو ما يفضله الشيعة من التكثير أو بنحو ما يفضله غيرهم، ليس مهما بمقدار ما تكون دلالاته والرسائل التي يعطيها مهمة..

ومن هذه الدلالات:

أ- التنوع البشري والعرقي: ففي الشيعة عرب، وأكراد، وأفارقة، وهنود وباكستانيون، وفرس، وأتراك، وأفغان، وأوربيون..

ما الذي يعينه هذا؟.

إن هذا بذاته ينفي مقولة طبل لها مخالفو المذهب، قديما وحديثا وهي أن التشيع كان ناشئا عن حالة قومية معينة (الفارسية)، فإنه لما تصاهر الحسين مع بنت ملكهم يزدجرد مال الفرس إلى التشيع أو أن التشيع دخلته الأفكار الفارسية من خلال ذلك، هذه الفكرة بالإضافة إلى تهافتها في ذاتها، فقد تزوج عبد الله بن عمر الأخت الأخرى، وابن أبي بكر الثالثة وأولداها فلماذا تأثر هؤلاء ولم يتأثر أولئك[1]؟.

(١) الوائلي: أحمد: هوية التشيع ص ٧٦: رد على هذه الجهة بتفصيل جاء فيه: إن من القواعد المسلم بها أن حكم الأمثال فيما يجوز أو لا يجوز واحد، وبناءا على هذا فإن العلة التي ذكرها هؤلاء الكتاب في اعتناق التشيع من قبل الفرس وهي إصهار الحسين عليه السلام للفرس موجودة عند عبد الله بن عمر بن الخطاب، وعند محمد بن أبي بكر، فقد ذكر الزمخشري في ربيع الأبرار وغيره من المؤرخين، أن الصحابة لما جاؤا بسبي فارس في خلافة الخليفة الثاني كان فيهم ثلاث بنات ليزدجرد فباعوا السبايا وأمر الخليفة ببيع بنات يزدجرد فقال الإمام علي إن بنات الملوك لا يعاملن معاملة غيرهن فقال الخليفة كيف الطريق إلى العمل معهن فقال: يقومن ومهما بلغ ثمنهن

وكذلـك إذا كانـت المصاهـرة بين الفرس وبين الحسـين سـببت لهـم التشـيع.. فما الذي يربـط الأفارقة بهذه المصاهـرة؟ والترك والهنود والعرب؟.

هـذا مع العلم أن الفرس لا يشـكلون في بعـض التقديرات أكثر من ٢٠٪ من عموم الشيعة.

ب- الانتشـار الجغرافي[١]: يسكن شيعة أهل البيت مناطق كثيرة في العـالم كمواطنـين أصليين مر على وجودهم في تلـك المناطق قرون.. وتتمدد هذه المناطق في كل القارات القديمة (آسيا وأفريقيا). الهند= ٤٠ مليون / الباكسـتان= ٣٥ مليون / ايران= ٦٠ مليون / أفغانسـتان= ٨ ملايين / آذربايجان ٨ مليون / تركيا= ٣ ملايين / نيجيريا= ١٥ مليون. العراق= ١٥ مليون / طاجيكستان= ٢ مليون[٢].

قـام بـه من يختارهـن فقومن فأخذهـن علي فدفع واحـدة لعبد الله بـن عمر وأخرى لولده الحسـين وأخرى لمحمد بن أبي بكر، فأولد عبد الله بن عمر ولده سـالما، وأولد الحسـين زين العابدين وأولد محمد ولده القاسـم فهؤلاء أولاد خالة وأمهاتهم بنات يزدجرد.

وهنا نسـأل إذا كانت العلة في دخول الفرس للتشـيع هي مصاهرة الحسـين للفرس فلماذا لا تطـرد هذه العلة فيتسـنن الفرس لإصهار عبد الله بن عمـر لهم ومحمد بن أبي بكر كذلـك؟ وكل مـن محمد وعبد الله أبناء خليفة كما كان الحسـين ابن خليفة. بالإضافة لذلك إن كلا من يزيد بن الوليد بن عبد الملك وأمه شاه فرند بنت فيروز بن يزدجرد ومـروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية أمـه أم ولد من كرد إيران فلماذا لا تطرد العلة هنا أيضا؟.

وبالعكس لماذا لا يميل العرب السـنة لأهل البيت الذين أمهاتهم عربية في حين نجد قسما من العرب يبغض أهل البيت كالنواصب مثلا؟.

(١) لا نريد هنا الالتزام بالأعداد والتقديرات المذكورة وإنما نريد الاسـتفادة منها بشـكل عام بغض النظر عن دقتها لبيان التنوع الجغرافي والانتشار العالمي..

(٢) هـذه الأرقـام نـأتي بهـا ولا نتحمـل مسـؤوليتها، إذ أن الناظـر يلاحـظ اختـلاف التقديرات..

بل يمكن القول إنه قل أن يوجد بلد فيه مسلمون في العالم، ولا يوجد فيه شيعة أهل البيت، حتى أن فرانسوا تويال يتحدث عن أقلية شيعية في آسيا الوسطى، قائلا: إنها عرفت مصيرا أكثر تعقيدا ومأسوية وهم: المسقط (هكذا في الترجمة العربية) وهم جورجيون أسلموا في القرن الثامن عشر، ومع أن جذورهم جورجية فقد تتركوا لغة مع انتمائهم إلى المذهب الشيعي، ولأن موقعهم على حدود امبراطوريات ثلاث: الفارسية والروسية التي ضمت جورجيا إليها في القرن التاسع عشر والسلطنة العثمانية.. وأنهم نفاهم ستالين في العام ١٩٤٤م إلى أوزبكستان خوفا من أن يشكلوا (طابورا خامسا) لتركيا[١]..

يشكل الشيعة ٧٠٪ من سكان أهم منطقة في العالم من الناحية الجيوسياسية حيث يقطنون على ضفتي الخليج التي تحتوي على ثلاثة أرباع المخزون العالمي من احتياطي النفط،والمنطقة التي انتقل إليها مركز الثقل في العالم العربي بعد أن كان في محيط البحر الأبيض المتوسط، كما أنهم في قلب العديد من الصراعات ذات الطابع الاقليمي أو الدولي[٢].

هذا يعني أن من يفكر في محاصرة الشيعة أو التشيع فضلا عن القضاء عليهم، هو واهم جدا، فإن هذه الامتدادات هي أشبه بالمحيط، الذي كلما حوصر من جانب توسع من آخر.

وليس الكلام هنا عن الاستقواء واستعداء الآخرين، وإنما الكلام هو في أن يقلع من يفكر بهذا النحو عن التمادي فيه، فإنه أشبه بمقارعة الهواء ومصارعة الضياء!

---

(١) تويال:فرانسوا ؛ الشيعة في العالم ١٠٦

(٢) تويال: ٢٧.

ج- حكم الشيعة لبلاد المسلمين:

شـهدت مناطـق كثيرة مـن بلاد المسـلمين في فـترة (أو أكثر) من الفترات حكما متأثرا بالحالة الشـيعية حتى يمكن القول أن القرن الرابع الهجري كان قرن حكومة الشيعة في العالم الإسلامي بامتياز[1].

إن الحكـم القائـم عـلى اسـاس مذهبي لمنطقة واسـعة مـن العالم الإسـلامي، ولمدة طويلة يشـير إلى أن ذلك المذهب ليـس وجودا طارئا ولا مؤقتا، وإنما هو متداخل في النسيج الإسلامي، ومتواصل معه.

ولـو ألقينـا نظرة خاطفـة لوجدنا مصـداق القول السـابق؛ ففي بلاد المغرب الأقصى تأسسـت دولة الأدارسـة وبقيت قرنين من الزمان (١٧٥ - ٣٧٥هـ). والأدارسـة[2] يوجد كلام في مذهبهم وأنهم هل هم شيعة بالمعنى الخاص (العقدي) أو أنهم زيدية؟ وبالرغم من أن مشهور المؤرخـين عـلى هذا القول، إلا أن هناك رأيـا يتحدث عن وجود أرضية شـيعية بالمعنى العقدي ناتجة عن إرسـال الإمام الصادق اثنين من دعاته

(١) عـبر عنه الباحث رسـول جعفريان بالقـول إن (القرن الرابع هو قرن امتداد التشـيع وكانـت هنـاك بواعث عديـدة على هذا الامتـداد منها: قيام اربع حكومات شـيعية، الفاطميـة في مـصر، والبويهية في العراق، والحمدانية في سـورية، والزيدية في اليمن) تاريخ الشيعة في ايران ٢٧٨.

(٢) الادارسة: على أثر ثورة الحسين بن علي بن الحسن المثلث بن الحسن المثنى بن الحسن السبط ومقتل الحسين وأصحابه، كان من الباقين ادريس بن عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسـن السـبط، واسـتطاع أن يتخفى ويصل إلى المغرب وتحالف هناك مع زعيم بربـري وأقنعه بدعوتـه، وأعلن الثورة على العباسـيين وفصل تلمسـان عن الخلافة العباسـية، وبدأ يتوسـع في تلك المناطق حتى أرسـل هارون الرشيد إلى من تسلل إلى بطانته وسـمه، غير أن اغتياله هذا لم ينه دولة الأدارسـة بل انتظر بابنه المولود والذي سمي بإدريس حتى بلغ وتولى الحكم وتوسع حتى ضم الجزائر وقضى على أعدائه.. واستمرت دولتهم قرنين من الزمان.

أثناء حياته وكان هؤلاء أول من نشر التشيع في تلك المنطقة[1]، وجاء ادريس بن عبد الله الحسني، فاستثمر تلك الحالة.

وفي مصر كان الفاطميون الذين استمر حكمهم قريبا من ثلاثة قرون (٢٩٨ هـ - ٥٦٧م)، كانت لديهم توجهات شيعية ولو على المستوى العام.

وفي العراق وكانت بغداد عاصمة الخلافة حينها، جاء البويهيون وبقوا فيها حاكمين ١٣٤ سنة (٣٣٤- ٤٤٧) ويتم الحديث عنهم في تاريخ التشيع في إيران..

وفي حلب والموصل كان الحمدانيون الذين استمرت دولتهم قريب قرن من الزمان (٣١٧-٣٩٤). والحديث عنهم يكون عند الحديث عن تاريخ الشيعة في لبنان والشام.

وفي لبنان الشمالي كان آل حرفوش قد حكموا بعلبك مدة ثلاثة قرون ونصف (٣٩٠) وشملت امارتهم حمص وتدمر ووصلت إلى حدود القدس.

الجزيرة العربية: حكم العيونيون الأحساء والقطيف والبحرين لمدة أكثر من قرن ونصف من الزمان ١٦٧ سنة من (٤٦٩- ٦٣٦ هـ). ويأتي شيء من الحديث عنهم في تأريخ الشيعة في القطيف والأحساء، وبالرغم من أن بعض الباحثين حاول أن يتنكر لحقيقة تشيعهم، إلا أن المعروف هو أنهم شيعة إماميون، ففي دراسة أعدها نايف بن عبد الله الشرعان، ونشرها مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية بالرياض عام ١٤٢٣ هـ تحت عنوان «نقود الدولة العيونية في بلاد البحرين» توصل بها إلى إثبات أن المذهب الرسمي للدولة العيونية هو

(١) راجع نجيب زبيب: دولة التشيع في بلاد المغرب.

المذهب الشـيعي، على عكس ما ورد في معظم الدراسـات التاريخية من أن المذهب السـني هو مذهب حكام الدولة العيونية. وقد أورد في كتابه هـذا صورا عن النقـود التي كانوا يتعاملـون بها، وفيها الشـهادة الثالثة لعلي بأنه ولي الله، الأمر الذي يعد من خاصة الشيعة..

بل إن الشـيعة قد حكموا اليمامة شرق نجد، مدة تصل إلى قرنين من الزمان، وذلك أيام الدولة الأخيضرية عام ٢٥٢ هـ، على يد محمد بن يوسف الأخيضر، الذي يعود بنسبه إلى الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب. و كان محمد بن يوسف قد قدم إلى اليمامة فاراً من الحجاز بعد فشل الثورة التي قام بها هناك ضد العباسيين و وفاة أخيه و شريكه في الثورة إسـماعيل بن يوسف. وقد وصف الرحالة ناصر خسرو الذي مـر بأراضيهم في القرن الخامس الهجـري عاصمتهم الخضرمة بالقوة و المناعة و وصف المنطقة بأنها مزدهرة في فصل الشتاء[١].

هذا في المنطقة العربية، وأما في خارج المنطقة العربية، ففي:

الهند: قامت عدة دول شـيعية في فـترات متعددة، ومناطق مختلفة منها: المملكة القطب شـاهية التي اسـتمرت لمدة تزيد على قرن ونصف من الزمان (٩١٨- ١٠٨٣)، وهم أمراء أودة شمال الهند، ويشار إلى أن ملـوك هـذه المنطقة كانت لهـم أوقاف ظلت تـصرف عوائدها إلى وقت قريب على المراقد والحوزة.

هذا في شـمال الهنـد وأما جنوب الهنـد، فقد قامـت مملكة دهماني الشيعية واستمرت مدة ٢٠٠ سنة[٢]..

---

(١) موقع الكتروني موسوعة ويكبيديا.

(٢) للتفصيل يمكن مراجعة كتاب: ملوك حيدر آباد، لمحمد سعيد الطريحي.

إيـران: فبالإضافة إلى تشـيع السـلطان خدابنده (سـنة ٧٠٧ هـ) الذي كان معاصرا للعلامة الحلي ومن بعده أمراء المغول، فإن الصفويين الذيـن جاؤوا فيها بعد أعلنوا الدولة شـيعية وبقيـت كذلك محكومة من قبل الشيعة إلى يومنا هذا.

اندونيسـيا: يرى بعض الكتاب بأن الإسلام دخل اندونيسيا عن طريـق العلويـين المهاجرين إلى هنـاك وفي طليعتهم أحـد أحفاد الإمام الصـادق وهـو أحمد بن عيسـى بـن محمد بن عـلي بن الصادق المسـمى بالمهاجر والذي وصلها سنة ٣١٨ هـ. وأنهم أسسوا دولة هناك استمرت ثلاثة قرون.. غير أن المذهب المنتشر فيها بعد كان الشافعي.

وهكـذا لـو أردنا الاسـتطراد لضاق المجـال، وما ينفعنـا في هذه القضيـة هي أن هذا المذهب والطائفـة لم تكن مخذولة على طول الزمان، بالرغم من عنف الإقصاء والابعاد الذي واجهه وواجهته..

إن حكـم أهـل مذهـب لمنطقة معينـة ليعطـي إشـارة إلى أن هذا المذهـب ليس طارئـا ولا مؤقتا، غير أن الأهم من ذلـك هو أنه ينفي ما قاله بعضهم وهو عجيب من أن الدليل على حظوة غير الشـيعة عند الله أنهـم قامت لهـم الدول، وأن ذلـك دليل على حب الله لهـم، وفي المقابل فإنه (كيف يكون علي ولي الله وقد أخفق ثلاث مرات في تسنم الخلافة؟ وحـين اسـتلمها قامت الحـروب ضـده إلى أن قتـل؟.. يقول هـذا: إن التاريخ شـاهد على حظوة السـنة لدى الله لأن النجاح الدنيوي أوضح مقياس لفضل الله ورضاه، بينما فشل الأئمة في الفوز بالسلطة)!!.

ولا ريـب أن هـذا المقياس خاطئ جدا فإن النجاح والفشـل لهما أسـبابها الموضوعية التي لا ترتبط بالضرورة بمحبة الله لمن يسـيطر على

الحكم، فإن إسرائيل وهي عين الباطل بلا ريب استطاعت أن تقيم دولتها في وجه جميع المسلمين الذين هم على الحق بلا ريب.! وينبغي بناء على هذا التوظيف الخاطئ لفكرة سقيمة أن تكون إسرائيل أقرب إلى الله من المسلمين الفلسطينيين!! بل يكون الاستعمار البريطاني والفرنسي بهذا أقرب إلى الله من العرب والمسلمين الذين احتلت أراضيهم وبلادهم لفترات مختلفة من قبل هذين الاستعمارين!

نقول بالرغم من أن هذه النظرية خاطئة جدا إلا أننا مع ذلك نقول إنه في تطبيقها على الشيعة سيكون الأمر أشد بعدا عن الواقع، وذلك لأنهم حكموا العالم الإسلامي كما تبين قبل قليل، فحتى لو فرضنا أن السيطرة والانتصار والحكم تلازم رضا الله فإن الشيعة قد حققوا ذلك قديما وحديثا!

ولا نعلم هل أن سعي البعض الدائم لرفض التمكن والانتصار الذي حصل للشيعة في العراق ضد القوى البعثية، وبذلهم الجهود لكي لا يستقر هل هو راجع إلى هذه النظرية؟.. وأنهم غير قادرين على رؤية الشيعة حاكمين ومنتصرين لأنه يكذب نظريتهم في حظوة غير الشيعة عند الله وعدم حظوة الشيعة!.

لقد قدم الشيعة في أكثر من موضع مثالا طيبا للتعايش بين المذاهب وأتباعها، فإن هذه الحكومات وإن كانت تشجع نشر التشيع في الأمة وهذا طبيعي حيث تراه الطريق الأسلم إلا أنها لم تسع لإلغاء المذاهب الأخرى بل تعايشت معها، ولو استثنينا بعض الحالات في مناطق محدودة خرجت عن هذا السياق وكانت ضمن حالة المناكفة السياسية كما حصل بين الصفويين والعثمانيين لوجدنا أن الصورة العامة

هي كـما ذكرنـا.. ولذلك قال بعضهـم بأن: «السـلالات التي حكمت العالم العربي كانت تشـجع إسـلامها الشـيعي الخاص لكنها لم تلجأ إلى قهر السنة بإجبارهم على اعتناق المذهب الشيعي»[1].

(١) توبال، مصدر سابق ٤١.



تاريخ الشيعة في العراق

من عاصمة الإمام إلى الحوزة العلمية

الحدث العراقي فاجأ الكثير بنحو مذهل.

فاجأ الحضور الشيعي الغالب في العراق، والكثافة السكانية لهذا المجتمع المسلمين وغيرهم على السواء، وذلك أن الكل كان يتعامل على أساس أن العراق وهو بلد الخلافة العباسية، وخلاصة تاريخ الأمة الإسلامية، ومحل تطبيق القومية العربية.. بلد لا يشكل فيه الشيعة إلا نسبة قليلة ناقمة.. وهم في الغالب من أصول غير عربية..

تغير كل ذلك عندما جاءت الإحصاءات لتؤكد أن الشيعة العرب هم أكبر مكون عربي في العراق ولا يمكن أن يقاس بهم غيرهم في هذه الجهة.. وبالرغم من عدم (هضم) هذه المسألة من قبل غير العراقيين (إسلاميين وقوميين) واستماتتهم في نفي هذه الفكرة، والكتابة ضدها والتعبئة الاعلامية بما يخالفها، إلا أن الشمس لما كانت لا تغطى بغربال..أعادت هؤلاء وغيرهم إلى تلك الحقيقة المرة التي كان عليهم أن يتجرعوها ولو كانت مرة المذاق!.

نعم يشكل العراق أعظم تجمع شيعي عربي في العالم الإسلامي..

وقد تحولوا إلى أكثرية بعد سيرورة تاريخية متعددة المراحل ويمكن لنا أن نتابع التكون التاريخي للشيعة في العراق، حتى صاروا أغلبية السكان فيه بدءًا من أوائل القرن التاسع عشر، من خلال عدد من المراكز السكانية الأساسية، وهي الكوفة وبغداد والحلة..

١- الكوفة:

ذكر أنها سميت كوفة لاستدارة بنائها. يقال: تكوف القوم: إذا اجتمعوا و استداروا. وقيل: الكوفة هي الرملة الحمراء، و بها سميت الكوفة. و في حديث سعد، لما أراد أن يبني الكوفة قال: «تكوفوا في هذا الموضع» أي اجتمعوا فيه، و به سميت الكوفة[١].

وفي لسان العرب؛ التَّكَوُّفُ: التجمع. و الكُوفَة: الرملة المجتمعة، و قيل: الكُوفَة الرملة ما كانت، و قيل: الكُوفَة الرملة الحمراء و بها سميت الكُوفَة. الأَزهري: الليث كُوفَانُ اسم أَرض و بها سميت الكُوفَة. ابن سيدة: الكُوفَة بلد سميت بذلك لأَن سعداً لما أَراد أَن يبني الكوفة ارتادها لهم و قال: تَكَوَّفُوا في هذا المكان أَي اجتمعوا فيه، و قال المفضل: إنما قال كَوِّفُوا هذا الرمل أي نَحُّوه و انزلوا، و منه سميت الكُوفَة. و كُوفَان: اسم الكُوفَة عن اللحياني، قال: و بها كانت تدعى قبل، قال الكسائي: كانت الكُوفَة تُدْعى كُوفَان[٢].

يذكر المؤرخون أن تأسيس الكوفة يرجع إلى زمان الخليفة عمر بن الخطاب، الذي كان يريد أن يجعل لجيوش المسلمين المنطلقة إلى شرق البلاد الإسلامية للفتح، مكانا يجتمعون فيه، ويتزودون بالمؤن الحربية

(١) مجمع البحرين، ج٥، ص ١١٦.
(٢) لسان العرب: ج٩، ص٣١٢.

وتكون إليـه فيئتهم ورجوعهم.. فكان أن تم اختيار الكوفة كمعسـكر للجند، ثم مُصّرت!!.

ويضيف بعض الباحثين سـببين آخرين؛ الجغـرافي: حيث ترتب عـلى انتقـال الجنـد العرب مـن البيئة الصحراويـة إلى البيئة السـهلية أن تغيرت صحة الجند وذبلت أجسامهم، فكانت الحاجة إلى مكان صحي. ورغبة الخليفة في أن يبتعد الجنود عن ترف المدن المفتوحة [(١)].. وبالرغم مـن اختيـار المدائن في أول الأمـر إلا أنها لم تكن ملائمـة لهم، فاختيرت الكوفة.

ومـع تمصيرها انتقل إليها عدد كبير العرب في نهاية سـنة ١٧ هـ، فقـد ذكـر أن ثلاثمائة وسـبعين من صحابـة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، قد سـكنوها، ترجم ابن سـعد في الطبقات مائة وخمسـين منهم، وأما من التابعين فقد أورد ترجمة ٨٥٠ منهم [(٢)].

هذا على مستوى النخبة والشخصيات، وأما على مستوى القبائل فقـد غلب عـلى الكوفة القبائـل اليمنية التي توافـدت إليها حتى وصل عددهم فيها إلى اثني عشر الفا من قبائل:

١- قضاعـة. ٢- غسـان. ٣- بجيلـة. ٤- خثعـم. ٥- كنـدة. ٦- حـضر مـوت. ٧- الازد. ٨- مذحـج. ٩- حمـير. ١٠- همـدان. ١١- النخع [(٣)].

---

(١) د. خالد عزب: الكوفة مدرسة العلم الأولى:موقع الكتروني: www.islamonline.net.

(٢) البراقي: حسين النجفي: تاريخ الكوفة ٤٦٥

(٣) القرشي: باقر شريف ؛ النظام السياسي في الإسلام.

وكان أبـرز القبائل في هؤلاء، مذحج وهمدان حتى أن عبد الملك بن مروان بعد دخوله الى الكوفة قال حينما جاءته قبائل مذحج وهمدان: «ما أرى لاحد مع هؤلاء شيئا».

وقـد اقـترع لهـذه القبائل محل السـكنى فجاء سـهمها في القسـم الشرقي بالنسبة للمسجد وهو خير الأماكن..

ولم يقتـصر الأمر على القبائل اليمنيـة، وإن كانت صاحبة الكثرة والشـوكة فيهـا، بـل إن القبائل العدنانيـة أيضا سـكنت الكوفة، ويرى البعض أن عددها قد وصل إلى ثمانية آلاف شخص[1].

وسـكنت الكوفـة أيضا قبائـل بني بكر، مثل بني أسـد و غطفان ومحارب ونمير.

ويظهـر أن الوجـود الشـيعي بمعنى الميل إلى علي بـن أبي طالب، كان موجودا بوضوح وبالذات في أيام الخليفة الثالث، ويظهر ذلك من تفضيلهـم إيـاه، ومواقفهم من ولاة الخليفـة عثمان،وبالذات من الوليد بـن عقبة بن أبي معيـط.. ثم مجيء الوفـد الكوفي إلى المدينـة للاحتجاج على المخالفات التي كانت تجري في الكوفة وغيرها.. والذي كان يتألف بشكل أساس من رموز الشيعة في الكوفة كمالك الأشتر النخعي، وزيد بن صوحان العبدي، وزياد بن النضر الحارثي.

كل هذا كان يشير إلى الوجود الشيعي بالمعنى المتقدم في الكوفة.. إلا أن انتقـال أمـير المؤمنـين عـلي عليه السلام إلى الكوفـة بعد حـرب الجمل

---

(١) نقـل عـن الشـعبي قوله: كنا -يعنـي أهل اليمن- اثنـي عشر ألفا وكانـت نزار ثمانية آلاف، ألا ترى إنا أكثر أهل الكوفة وخرج سهمنا بالناحية الشرقية، فلذلك صارت خططنا بحيث هي.. عن تاريخ الكوفة، السيد البراقي، ص ١٣٦.

مباشرة يعتبر الفاتحة الحقيقية للتشيع العقدي في العراق.. حيث أنه بالتدريج غلب التشيع على هذه المنطقة..

مع انتقال الإمام إلى الكوفة انتقل مركز الثقل الإسلامي إلى هذه المدينة حيث انتقل معه كما قيل أكثر من (١٤٨) صحابيا، فضلا عن التابعين. وأورد ابن سعد أسماء (٥٠٠) شخص من التابعين (بعضهم كانوا فيها قبل انتقال الإمام إليها).

شكلت الكوفة بالنسبة للبصرة أحد المصرين العظيمين في العراق، المعادل السكاني (قريب من ٣٠٠ ألف نسمة لكل منهما في تلك الفترة)[١] كما يرى بعض المؤلفين.. والعقدي حيث كانت البصرة (عثمانية الهوى) غالبا والكوفة علوية الاتجاه.

وتواصل التأثير الشيعي في الكوفة.. إلى أيام معاوية حيث تعرضت لهجمة أموية قوية بعد هدنته مع الإمام الحسن عليه السلام الذي عاد منها إلى المدينة مع بقية بني هاشم.. حيث تولى عليها رجال أشداء وشرسون ضد مخالفيهم مثل زياد بن أبيه وابنه فيما بعد.. وتمت مهاجمة الحالة العقدية فيها، حيث كانت الموطن الأول الذي يشتم فيه أمير المؤمنين[٢] عليه السلام، وتم تهجير (أو هجرة) عدد غير قليل من العشائر

---

(١) سوف نجد بعض الاختلاف في التقديرات السكانية لمجتمع الكوفة، وذلك قد يكون راجعا إلى اختلاف الفترة الزمنية التي تم فيها التقدير، ومن المعلوم نمو المجتمع السكاني مع مرور الزمان.

(٢) قال المدائني: (وكان أشد الناس بلاءاً حينئذ أهل الكوفة، لكثرة من بها من شيعة علي عليه السلام، فاستعمل عليهم زياد بن سمية، فكان يتتبع الشيعة، فقتلهم تحت كل حجر ومدر وأخافهم، وقطّع الأيدي والأرجل، وسمَّل العيون، وصلّبهم على جذوع النخل، وطرَّدهم وشرَّدهم عن العراق، فلم يبق بها معروف منهم).

وروى أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي في كتابه (المنتظم): (أن زياداً لما حصبه

الموالية لأهل البيت عليهم السلام، منها همدان كما يأتي في الحديث عن التشيع في لبنان،ومنها الأشعريون كما يأتي في الحديث عن تشيع إيران.

بل لقد وجدنا آثار تلك الحملة والعداء امتدت إلى الثقافة والأدب، فصار من الأمثلة (أغدر من كوفي) و(الكوفي لا يوفي) ويلاحظ نبرة العداء السلطوي لها، حتى في الثقافة العامة: اتهام الكوفيين بالبخل والغدر..

بالرغم من كل ذلك فقد بقيت الكوفة خزان التشيع كما قيل، فقد وجدنا أنها مصدر الثورات (ذات المنحى الشيعي العام كالتوابين والمختار والثورات العلوية الأخرى).. ويشير إلى ذلك، ما قاله أهلها لعبد الله بن مطيع (والي الزبير) إنهم لا يريدون غير سيرة علي بن أبي طالب.

كيف نجمع بين هذا وبين أحاديث الذم للكوفة؟.

ربما يسأل سائل عن أنه كيف يمكن المصير إلى هذا الكلام مع أننا نجد أن هناك ذما من قبل الإمام علي عليه السلام، والحسن، والحسين لأهل الكوفة؟.

والجواب إن الأحاديث بالنسبة للكوفة تنقسم إلى:

- ما يشير إلى ذم أهل الكوفة، وأغلبها منسوبة إلى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.. فمنها: قوله:

* أقومكم غدوة، وترجعون إلي -عشية- كظهر الحنية، عجز

أهل الكوفة، وهو يخطب على المنبر، قطع أيدي ثمانين منهم، وهمَّ أن يخرِّب دورهم، ويجمِّر نخلهم، فجمعهم حتى ملأ بهم المسجد والرحبة، يعرضهم على البراءة من علي عليه السلام، وعلم أنهم سيمتنعون، فيحتج بذلك على استئصالهم، وإخراب بلدهم

المقوِّم، وأعضل المقوَّم (خ ٩٧).

* أريد أن أداوي بكم وأنتم دائي، كناقش الشوكة بالشوكة، وهو يعلـم أن ضلعهـا معها اللهم قـد ملت أطباء هذا الـداء الدوي، وكلت النزعة بأشطان الركي (خ ١٢١).

* هيهـات أن أطلع بكم سرار العدل، أو أقيم اعوجاج الحق (ك ١٣١).

* أيهـا النـاس، إني قد بثثـت لكم المواعظ التي وعـظ الأنبياء بها أممهم، وأديت إليكم ما أدت الأوصياء إلى من بعدهم، وأدبتكم بسوطي فلم تسـتقيموا، وحدوتكم بالزواجر فلم تستوسـقوا لله أنتم، أتتوقعون إماما غيري يطأ بكم الطريق، ويرشدكم السبيل (خ ١٨٢).

* فقبحـا لكم وترحا،... فإذا كنتم مـن الحر والقر تفرون، فأنتم -والله- مـن السـيف أفر يا أشـباه الرجـال ولا رجال حلـوم الأطفال، وعقول ربـات الحجال، لوددت أني لم أركم ولم أعرفكم معرفة -والله- جرت ندما، وأعقبت سدما. قاتلكم الله لقد ملأتم قلبي قيحا، وشحنتم صدري غيظا، وجرعتموني نغب التهمام أنفاسا (خ ٢٧)

* أف لكم لقد سئمت عتابكم (خ ٣٤).

* أضرع الله خدودكـم، وأتعـس جدودكـم لا تعرفـون الحـق كمعرفتكم الباطل، ولا تبطلون الباطل كإبطالكم الحق (ك ٦٩)[1].

- غـير أن هنـاك طائفة أخـرى أكثر مـن الروايات التي تشـتمل عـلى مدح الكوفـة وأهلها بعضها عن أمير المؤمنـين عليه السلام، فمن ذلك:

(١) راجع المعجم الموضوعي لنهج البلاغة، أويس كريم محمد، ص٤٢٩.

ما روي عنه عليه السلام: هذه مدينتنا ومحلنا ومقر شيعتنا[1]. ومنها قوله أيضا: «كأني بك يا كوفة تمدين مد الأديم العكاظي، تعركين بالنوازل، وتركبين بالزلازل، وأني لأعلم أنه ما أراد بك جبار سوء إلا ابتلاه الله بشاغل، أو رماه بقاتل.. وأنها «الكوفة كنز الإيمان وجمجمة الإسلام وسيف الله ورمحه يضعه حيث يشاء، والذي نفسي بيده لينصرن الله جل وعز بأهلها في شرق الأرض وغربها كما انتصر بالحجاز»[2].

وقد وصف الإمام زين العابدين أهل الكوفة، أنهم الشعار دون الدثار، وهو تعبير عن القرب والالتصاق بأهل البيت، فقد روى حنان بن سدير، عن أبيه قال: دخلت أنا وأبي وجدي وعمي حماما بالمدينة فإذا رجل في بيت المسلخ فقال لنا: ممن القوم؟ فقلنا: من أهل العراق فقال: وأي العراق؟ قلنا: كوفيون، فقال: مرحبا بكم يا أهل الكوفة أنتم الشعار دون الدثار.. وينتهي الحديث إلى أن سدير سأل عن الرجل فإذا هو علي بن الحسين عليهما السلام ومعه ابنه محمد بن علي عليهما السلام [3].

واعتبر الإمام الصادق أنه ليس هناك بلد يحتوي على محبين أكثر من الكوفة، فعن عبد الله بن الوليد قال: دخلنا على أبي عبد الله عليه السلام في زمن مروان، فسألنا من أنتم؟ فقلنا: من أهل الكوفة. فقال: «أما إنه ليس بلد من البلدان أكثر محبا لنا من أهل الكوفة ثم هذه العصابة خاصة، إن الله هداكم لأمر جهله الناس أحببتمونا وأبغضنا الناس وصدقتمونا وكذبنا الناس واتبعتمونا وخالفنا الناس، فجعل الله محياكم محيانا ومماتكم مماتنا[4].

(١) بحار الأنوار: ج٥٧، ص٢٠٩، وشرح النهج للمعتزلي: ج ٣،ص١٩٨.
(٢) تاريخ الكوفة، السيد البراقي: ص ١٥١.
(٣) الفروع من الكافي، الشيخ الكليني: ج ٦، ص ٤٩٧/ ٤٩٨.
(٤) روضة الكافي، الشيخ الكليني: ج٨، ص٨١.

وفي رواية عن الإمام الرضا عليه السلام يخاطب فيها قوما من أهل الكوفة بقوله: يا أهل الكوفة لقد أعطيتم خيرا كثيرا وانكم لمن امتحن الله قلبه للايمان، مستقلون مقهورون ممتحنون يصب عليكم البلاء صبا، ثم يكشفه كاشف الكرب العظيم[1].

وجوه الجمع المحتملة:

- اختلاف المخاطبين: فإنه يحتمل أن يكون المذمومون هم عموم الجيش، والممدوحون انصاره وخاصته، والمؤمنين به. وذلك أن الإمام عليه السلام، وقد ورث جيشا غير عقائدي يتكون من فئات شتى (حتى أن الخوارج الذين قاتلوه فيما بعد كانوا جزءا كبيرا من هذا الجيش)، لم يكن قادرا على تحريك هذا الجيش إلى الأهداف التي يريدها، بالاسلوب المناسب.. وهو ما عبر عنه بأنه يعرف داءهم ودواءهم ولكن هيهات أن يصلحهم بفساد نفسه!.

- اختلاف الزمان والاجيال: فالمجتمع ليس كتلة صلبة واحدة، وإنما هو في حالة متحركة في أفكاره وصفاته، وبناء على هذا فقد يقع اللوم والذم على فئة اجتماعية تعيش ضمن زمن معين بصفات خاصة ولها عنوان أهل الكوفة. ولكن على أثر تغير الجيل ذاك وتبدل صفاته، كان هناك مدح وثناء عليهم، وهذا واضح في اختلاف روايات الذم وخطابته وهي عن الإمام علي عليه السلام، وخطاب المدح وهو الوارد عن الأئمة بعد الإمام زين العابدين.. غير أنه يشكل هذا الجمع بأن بعض أحاديث المدح واردة عن الإمام علي عليه السلام، فلا بد من المصير فيها إلى الاحتمال الأول.

---

(١) تهذيب الأحكام، الشيخ الطوسي، ج ٦،ص٢٤.

- إنـه لا تخالف بين الطائفتين من الأقـوال فالإمام هو كالطبيب فحين يرى الجسـم المسـلم صحيحا سـليما يمدحه ويثني عليه، وأما إذا وجـد فيه أمراضا وعاهـات فإنه يهاجمها بعنف ويسـعى لبترها عن بقية الأعضاء حتى لا تصيبه بالعدوى..

الكوفة في عهد الحسين والسجاد عليهما السلام:

بالرغم من أنه كان هناك خمسـة عشر مقاتلا[1] إلى جانب الحسين مـن أهل الكوفـة، إلا أن الانطباع السـائد عند غير واحـد من الباحثين أن الكوفـة قـد خذلـت الإمام الحسـين عليه السلام، بعد أن أسـلمت موفده ومبعوثه مسـلما بن عقيل بن أبي طالـب، ولم تقم معه إلى الأخير مما أدى إلى شهادته على يد أنصار عبيد الله بن زياد..

وهذا المعنى شـكل محلا للانتقاد والتوبيخ والتقريع قام به الإمام زين العابدين عليه السلام الذي جاء أسيرا إلى الكوفة ومعه نساء أهل البيت، فقد قال الإمام في خطبة له:

وأكدت هذا المعنى زينب بنت الإمام أمير المؤمنين في خطابها لهم:

إلا أن هذا الأمر نفسه (الشعور بذنب الخذلان) ما لبث أن تحول إلى منصـة إطـلاق للعزيمة والثـورة على الأمويين في نفـوس الكوفيين،

(١) ذكـر أسـماءهم السـيد البراقي في تاريخ الكوفة، ص ٤٦٨ كما يـلي: حبيب بن مظاهر الأسـدي، ومسـلم بن عوسجة الأسـدي، وبرير بن خضير الهمداني المشرفي، وقيس ابن مسـهر الأسـدي الصيداوي، وعمرو بن خالد الأسـدي الصيداوي، وأبي ثمامة عمـرو الهمداني الصائـدي، وعابس بن أبي شـبيب الهمداني الشـاكري، وحنظلة بن أسـعد الهمداني الشـبامي، والحجاج بن مسروق المذحجي الجعفي، ويزيد بن مغفل المذحجي الجعفي، وعمرو بن قرظة الأنصاري الخزرجي، وزهير بن القين الأنماري البجلي، ومسلم بن كثير الأعرج الأزدي، والحر بن يزيد الرياحي.

فكانت ثورة التوابين في بداية الأمر، ثم ثورة المختار بن أبي عبيدة الثقفي على أثرها..

وتحولت الكوفة بالتدريج إلى منبع للثورات ضد بني أمية، لكل من أراد أن يثور.

الكوفة في عهد الإمام الصادق عليه السلام:

تشير بعض الروايات إلى بقاء الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام فيها مدة سنتين وأنه قد سكن في محلة عبد القيس (وهي القبيلة الشيعية النازحة من أطراف البحرين والقطيف ويأتي الحديث عنها في تاريخ التشيع في هذه المنطقة). وكان ذلك مزامنا لأيام أول حكام العباسيين أبي العباس السفاح، وفي هاتين السنتين «ازدلفت إليه الشيعة من كل فج زرافات ووحدانا تستقي منه العلم وترتوي من منهله العذب الروي وتروي عنه الأحاديث في مختلف العلوم»[1].

وهذا الأمر يفسر كيف أن الحسن بن علي الوشاء كان يقول إنه: (أدركت في هذا المسجد تسعمائة شيخ كلهم يقول حدثني جعفر بن محمد) مما يفيد التلقي المباشر لهؤلاء الرواة، ولم يكن معقولا أن يكونوا كلهم قد سمعوا من الإمام في المدينة المنورة.

ولا ريب أن بقاء الإمام الصادق هذه المدة في الكوفة، قد أثر تأثيرا واضحا في الحالة المذهبية والعقدية، وعموما فإن الكوفة قد أخذت صبغتها الشيعية الغالبة منذ ما قبل هذا التاريخ، واستمرت في هذا الاتجاه حتى أننا نقرأ أن المنصور العباسي، قد أقنع السفاح أول خلفائهم أن لا يجعل الكوفة عاصمة ملكه لأنها مركز أهل هذا البيت!

(١) البراقي، تاريخ الكوفة، ص ٤٦٦.

وعندما ثار ابراهيم بن عبد الله في البصرة، قال له مستشاروه املأ الكوفة بالرجال!.

٢- بغداد:

بالرغم من أن الشيعة قد شهدوا عصرا صعبا أيام أبي جعفر المنصور العباسي الذي وجد في الحسنيين الثائرين تهديدا عسكريا جديا لخلافته.. ووجد في الحسينيين تهديدا علميا وأخلاقيا!! فبطش بالشيعة بقدر ما استطاع إلى أن انتهى عهد حكومته ليأتي بعده المهدي ويسير على نفس الطريق، مع ملاحظة تجنيد الشعراء والفقهاء لصياغة نظرية ترد على استحقاق أهل البيت عليهم السلام للإمامة والخلافة،فكان مروان بن أبي حفصة وأمثاله.. وهذا يبين أن قضية الإمامة في بغداد قد أصبحت تشكل تحديا فكريا وعقديا بالنسبة للخلافة.. بحيث اضطروا إلى التحرك على هذا المستوى!.

ووجد الحكام العباسيون أنفسهم مطالبين بتقديم تبرير لوجودهم في سدة الخلافة مع حضور من هو أولى منهم في نظر الناس، وذو أهلية أكثر! فاستعانوا بفقهاء آخرين وقدموهم على أهل البيت وحاولوا فرض فقههم على المجتمع المسلم!.

ولأن الخلافة العباسية لم تكن معتمدة على نظرية كلامية ولا مدرسة فقهية بل كانت تدور مع هذه المدارس بحسب الوضع السياسي قربا وبعدا.. كان لا بد لها أن تتراجع في وجه المدرسة الإمامية..وبالفعل فما أن حل الدور الثاني للعباسيين بدءا من المأمون العباسي حتى وجدنا الحالة الشيعية بمفرداتها، موجودة في داخل البلاط العباسي فضلا عن المجتمع العام.. وكان الأمر في أيام الأئمة: الرضا، والجواد والهادي

والعسكري في حالة جيدة من هذه الناحية.. بالرغم من أن الخلفاء كانوا يحاولون السيطرة على انتشار الحالة الشيعية باعتقال الأئمة أو حتى قتلهم!.

كان الأمر يسير بهذا الوضع: الخلافة العباسية تسير إلى الضعف، والحالة الشيعية في بغداد تزداد قوة!.

بغداد أيام البويهيين:

سيطر البويهيون على بغداد في سنة ٣٣٤ هـ. «وكانت لهم الدولة العظيمة التي باهى الإسلام بها سائر الأمم»[1] وكانوا ملتزمين بالتشيع بشكل عميق مع أنهم لم يضغطوا على المذاهب الأخرى وحرصوا على تشجيع علماء الشيعة حتى نقل أن عضد الدولة كان يزور الشيخ المفيد كبير علماء الشيعة في منزله ويعظمه..

وتشكلت مناطق سكانية شيعية خالصة إلى ذلك الوقت مثل منطقة الكرخ، وكانت المظاهر والشعائر الدينية الشيعية في بغداد تقام على قدم وساق.. فقد أقيمت مراسم يوم عاشوراء في بغداد علنا في العاشر من عام ٣٥٢ هـ، وأمر معز الدولة بتعطيل الأسواق في ذلك اليوم.

ويرى الباحث رسول جعفريان[2] أن من أسباب ركون قسم من أهل بغداد إلى التشيع، وحصول تغييرات في تركيبتها المذهبية، التطرف الذي أبداه الحنابلة في المسائل.. فقد اصطدموا بالطبري مع كونه سني المذهب!.

إن بقاء البويهيين في بغداد لمدة تزيد على قرن من الزمان كان

(١) تاريخ ابن خلدون: ج٤، ص٤٢٠.
(٢) تاريخ الشيعة في ايران: ص ٢٨٠.

مؤثـرا جدا في تسـهيل النشـاط الثقـافي والكلامي والفقهي الشـيعي.. وأدى لتواجد العلماء والمحدثين الشـيعة في هذه العاصمة، وتدريسـهم لأصول المذهب.

فقد وجدنا أن شـيخ الإسـلام محمد بن يعقـوب الكليني قد بقي في بغـداد فـترة من الزمن لتأليـف كتابه الكافي، وهذا بمجرده يشـير إلى وجـود مصادر مهمة لعلـم أهل البيت في تلك المنطقـة بحيث يقصدها الشـيخ الكليني.. كـما أن بقاءه هناك كان يسـهل عملية اتصاله بطلاب العلم الذين يهمهم معرفة أحاديث أهل البيت عليهم السلام.

غير أن التأثير الأكبر كان للشيخ المفيد محمد بن النعمان التلعكبري البغـدادي الـذي «بذل جهـودا عظيمـة لتعريـف العقائد الشـيعية من الوجهـة العقليـة مضافـا إلى ما عرف عنـه من دقـة في الأحاديث.. وقد أشـار الخطيب البغدادي بصراحة إلى تأثير الشيخ المفيد على الآخرين.. وقـال فيـه ابن كثير: كانت له وجاهة عند ملـوك الأطراف لميل كثير من أهل ذلك الزمان إلى التشـيع وكان مجلسـه يحضره خلق كثير من العلماء من سائر الطوائف»[1].

ولعـل ما ينقل عن تشـييع جنازتـه (ت ٤١٣ هــ) في بغداد يبين حجم الوجود الشـيعي هناك فقد نقل أن عدد من شـيعه بلغ ثمانين ألفا مـن الناس.. ومع ملاحظة أنه ليس كل أهل البلد يخرجون في التشـييع وإنما نسبة منهم يتبين أن الحجم الشيعي في بغداد كان كبيرا!.

ويضاف إلى هذا الجهود التي قام بها الشريفان الموسـويان الرضي والمرتضى في تلك الفترة ثم شيخ الطائفة محمد بن الحسن الطوسي الذي

(١) المصدر نفسه: ص٢٨٥ .

قيل إنه كان يحضر درسـه في بغداد ثلاثمائة مجتهد من الشيعة ومن العامة مـا لا يحـصى! وإذا صح هـذا النقل فإنه يكشـف لنا عن حجـم الحركة العلميـة الشـيعية في تلك الفـترة، ومن خلالها نكتشـف حجم الوجود الاجتماعي.

٣- النجف والحلة:

واسـتمر الأمـر حتـى بعـد مجـيء السـلاجقة (وهـم متعصبون مذهبيا) حيث كانوا يغذون المشـاكل بين السـنة والشـيعة وكان يحصل على أثر ذلك معارك بين المناطق الشيعية والسنية، انتهت إلى الهجوم على بيت ومكتبة الشـيخ الطوسي وإحراق كرسي تدريسـه، مما اضطره رغبة في إنهاء الفتنة إلى الهجرة إلى النجف الأشرف حيث فتحت تلك الهجرة باب الحوزة العلمية في النجف إلى جوار قبر أمير المؤمنين عليه السلام.

هجـرة شـيخ الطائفة من بغداد إلى النجـف كانت نوعية، والذي انتقـل بانتقاله كان أهـل العلم والراغبون في التخصص، وأما العشـائر وعامة الناس فلم تؤثر فيهم تلك الهجرة، وإنما ظلوا في أماكنهم يحاولون إقامـة شـعائرهم ومراسـمهم الدينيـة بحسـب مـا تتيـح لهـم الظروف السياسية والاجتماعية.

ويمكن القول إنها كانت حالة توسـع وامتداد، إلى منطقة جديدة لم يكن فيها حركة علمية أو نشاط إلى اجتماعي.. فازدهرت النجف وأطرافها بقدوم الشيخ وما تبع مجيئه من التفاف العلماء ومجي طلاب العلم.

غـير أن هـذا الأمر ما لبـث أن تراجع على أثر وفاة شـيخ الطائفة (ت ٤٦٠ هــ) وانتقـال المركز العلمـي إلى الحلة أيام ابـن ادريس، وآل

طاووس وفيما بعد المحقق والعلامة الحليان، وتأثرت أطراف الحلة بحركة التبليغ الشيعي بشكل واضح.

المغول والشيعة:

يحتاج الأمر في تشخيص الموقف الصحيح الذي اتخذه علماء الشيعة من الهجمة المغولية إلى تحقيق خاص، وقد قام عدد من الباحثين بهذا الأمر بكفاءة، حيث توصل علماء الحلة إلى أنه من العبث أن يتصدوا لمقاومة العاصفة المغولية التي اجتاحت كل شيء أمامها، خصوصا مع تداعي بنيان الدولة العباسية، وفساد الأمراء والقادة العسكريين

فكان أن جاء وفد من علماء الحلة يتقدمهم والد العلامة الحلي إلى هولاكو، واستطاع هذا الوفد أن يؤمن المراقد المقدسة للأئمة عليهم السلام من الهجوم المغولي وأن يصون مكتبات العلم والمعرفة من الإحراق والإتلاف، وأن يسلم عموم الناس في هذه المناطق على أنفسهم وأموالهم بفضل ذلك المسعى.

وبالرغم من التهريج الذي سلكه بعض الكتاب في التشويش على هذا الموقف العقلائي الحكيم [١]، إلا أن نتائجه كانت مفيدة ونافعة.

***

العراق بين الصفويين والعثمانيين:

في سنة ٩١٤ هـ، دخل الصفويون إلى بغداد، وسيطروا عليها،

---

(١) يذكر منهم السيد حسن الأمين رحمه الله الذي بحث الموضوع بشكل مفصل ومحقق في كتابه (في خضم التاريخ، طباعة دار المحجة البيضاء) ومنهم د. الغامدي في كتابه (سقوط الدولة العباسية).

ومنـذ ذلـك الحـين أصبحـت بغـداد والعـراق عمومـا محل تنـازع بين الصفويـين الإيرانيين وبين الأتـراك العثمانيين.. ولم يكن سـبب التنازع منحـصرا في الجانـب المذهبي، وإن كان هـو العنوان الأبرز، والسـلاح الذي شـهره كل من الطرفين بوجه خصمه واستفاد منه في تعبئة مجتمعه ضد الآخر.

لم يسـتمر وجود الصفويين في العـراق إذ أن العثمانيين ما لبثوا أن اسـتعادوا السيطرة على شـمال العراق بعد ست سنوات (سنة ٩٢٠ هـ) في موقعة جالديران. وعلى بغداد (سنة ٩٤٠ هـ).

ومع إعلان الصفويين أن التشـيع مذهب دولتهم الرسـمية. دفع شـيعة العراق ضريبـة ذلك (!!) فقامـت الدولة العثمانيـة باضطهادهم ومارس السلطان (سليم الأول) سياسة إرهابية بحقهم حيث اعتبرهم غير مسلمين وأعلن ضدهم الحرب المذهبية واستصدر من رجال الدين فتـوى بكفر الشـيعة وجواز قتلهـم وراح ضحية هـذه الفتوى عشرات الآلاف مـن الشـيعة.. وجـاء بعـده السـلطان مـراد الرابع فشـن حرباً طائفية على الشيعة. حيث قتل فيها عدد كبير.. وكذلك فعل والي مدينة كربـلاء عام ١٨٤٢ م (١٢٥٨ هـ) م حيث قتل فيها الوالي نجيب باشـا الآلاف..

واسـتمرت العلاقة بين الشيعة وبين الأتراك العثمانيين متأرجحة تؤثر فيها الظروف المحلية مثل علاقة بعض المرجعيات الدينية الإيجابية بالـولاة العثمانيـين حيـث ينعكـس ذلك بصـورة جيـدة في أوضاعهم، أوالاقليمية كالصراع مع الصفويين حيث يعانون من آثار هذا الصراع، كـما يؤثر فيها مزاج الحاكمين، ومرت في فـترات هدوء تبعا لذلك. فقد

سكت داود باشا الوالي المملوكي عن النشاط الشيعي وممارسة الشعائر، مثلما كانت سياسة عبد الحميد الثاني العثماني الداعية إلى الوحدة الإسلامية عاملا مهما في أن يتنفس شيعة العراق الصعداء.

البريطانيون ومفاجأة أكثرية الشيعة:

مع سيطرة البريطانيين على البصرة عشية الحرب العالمية الأولى (١٩١٤) وتقدمهم باتجاه العمارة وبغداد فيما بعد، ذهلوا من سعة انتشار التشيع وقوة المرجعية الشيعة التي اصطفت إلى جانب الحكومة العثمانية باعتبارها مسلمة بالرغم من معاناتهم مع حكامها والتمييز الطائفي الذي كانت تمارسه إلا أن العلماء وقفوا الموقف الرائع في معاداة البريطانيين.

فقد عارضهم وبشكل صريح أبرز علماء الحوزة العلمية، مثل شيخ الشريعة الاصفهاني والشيخ عبد الكريم الجزائري، وأصدر الميرزا الشيرازي محمد تقي بيانا بهذا الخصوص يحرم فيه انتخاب حاكم غير مسلم كما اشترك في قتالهم السيد محمد سعيد الحبوبي وسعى في ذلك الشيخ محمد رضا الشبيبي مؤكدين على وجوب الاشتراك مع الحكومة المسلمة أي العثمانيون في دفع الغزاة، وأمر الشيخ مهدي الخالصي بدفع الأموال في هذا السبيل.

لم تكن معارضة الحوزة العلمية ومراجع الدين مفاجئة للحكومة البريطانية بقدر ما كان مفاجأتها بنسبة سكان الشيعة في العراق، وبقدرة المرجعية على تحريك الساحتين الشيعية والسنية في مواجهة البريطانيين!!

لقد كان يتعامل مع الشيعة في العراق على أساس أنهم أقلية تبعا للانطباع الموجود من أيام الأتراك غير أن البريطانيين وقد استولوا على العراق ووجهوا بتلك المعارضة الشيعية القوية تنبهوا عبر إحصاء قاموا بإجرائه إلى أن الشيعة يشكلون أكثرية في البلاد وهم (ما بين ٥٣ـ ٥٦٪)..

لقد تنبه بعض الكتاب إلى هذه الحقيقة، وهي أنه قد حدث تحول للمذهب من قبل العشائر والقبائل العربية التي كانت في حوض الفرات، وأيضا من قبل القبائل التركمانية في شمال العراق، وهذا التحول في الجهتين غير المعادلة السكانية المذهبية.. ولم يكن هذا التحول والتغير في الوضع السكاني قد حدث أثناء الاحتلال البريطاني، وإنما سبقه بنحو قرن من الزمان أي في بدايات القرن التاسع عشر..

وقد ذكر ابراهيم الحيدري (عالم سني) قائمة باسم العشائر التي تشيعت مثل (زبيد، وبني لام، والبو محمد، وعشائر الديوانية، وبعض أفخاذ تميم، وربيعة...وشمر.. وقبلهم كانت قبائل المنتفق، وخزعل، وقسم من الدليم [1]..

وأخيرا القبائل التركمانية في كركوك.

وتختلف هذه القبائل لكن أعرقها في التحول العقيدي كانت قبل ١٥٠ سنة، وآخرها كان قبل ٦٠ سنة..

العوامل التي أدت إلى تشيع العشائر:

ما هي العوامل التي أدت إلى تشيع العشائر العربية تلك؟

(١) راجع اسحاق نقاش: شيعة العراق.

يتحـدث الباحث اسـحاق نقاش في كتابه شـيعة العـراق حديثا مفصلا وجيـدا عن العوامل الاجتماعية والجغرافيـة التي أدت إلى هذا التحول، ونحـن نحيل من أراد التفصيل على هـذا الكتاب، لكننا نوجز ما ذكره، ونذكر باختصار أسبابا أخر.. فمن تلك العومل:

١- الـدور العكسي الـذي قامـت بـه هجـمات الوهابيين عـلى كربلاء والنجـف، ومواجهـة هذه العشـائر لتلـك الهجـمات زادت دوافعهم للتشـيع خصوصا مع ملاحظة أبناء العشـائر هذه، التسـامح الشـيعي في مقابل التشدد الوهابي والذي كان يصل إلى العقوبة الشديدة جدا على استعمال التبغ! أو حلق اللحيـة! فضلا عن الصلاة في المراقد وعند القبور، الأمر الذي كان غير محتمل عند هذه العشـائر.. فإذا قارنت هذه الحالات مع ما عاشـوه إلى جنب الشـيعة لسنوات طويلة ورأوا منهم التسامح والأخلاق فإن النتيجة واضحة..

بـل لقـد سـاهمت تلـك الهجـمات في بنـاء شيء مـن التواصـل والتحالـف بـين العثمانيين والشـيعة العراقيين كما يقـول صاحب كتاب العراق: سياقات الوحدة والانقسام.

٢- كما أن من العوامل: توطين العشائر البدوية على يد العثمانيين الأتـراك الذين كانوا يريدون زيادة مداخيل الدولة من خلال الضرائب على زراعتهم.. فنظرا لحاجة الأتراك إلى أموال إضافية فكروا في توطين العشائر تلك، بتوزيع الأراضي في حوض الفرات عليهم، لكي يزرعوها وكان الأتراك يأخذون أموالا على الأرض نفسـها وضريبة على الزراعة والانتـاج وهـذا التوطين بالإضافـة إلى أنه قد هـدم نظامهم الاجتماعي البدوي التقليدي، جعلهم في جوار الحواضر الشيعية كالنجف وكربلاء ومناطق الجنوب الشيعية وفي مدى التبليغ الشيعي (بالقول والتعامل).

٣- ولا بـد مـن التأكيد على الـدور المهم الذي قامـت به الحوزة العلمية في نقل مذهب أهل البيت لتلك العشائر.

فقد ذكر صاحب الجواهر الشـيخ محمد حسـن النجفي[(١)] رحمه الله، عند الحديث عن سـبب تأليـف كتابه المذكور المشـهور، أنه كان يذهب إلى قـرى العذارات للتبليـغ ويحتاج إلى أن يحمل معه كتبا فقهية متعددة، فكتب هذا الكتاب. وهذا يشـير إلى جهده التبليغي أيام شبابه. كما ينقل نفس ذلك الأمر عن أستاذه الشيخ جعفر كاشف الغطاء في شبابه.

ونقل المحدّث النوري في خاتمة (مسـتدرك الوسائل) أنّ المرحوم السـيّد مهـدي القزوينـي من علـماء الشـيعة ومراجعها، نزيـل الحلّة في العـراق، وزميـل الشـيخ مرتضى الأنصـاري رحمهما الله أخـذ في أواخر حياته بالتبليغ وسـاهم في تحول عشـائر كانت برمّتها غير موالية، لأهل البيت سـلام الله عليهم؛ إذ كان يذهب إلى إحدى العشـائر ويمكث في مضيفهـا سـنة كاملة يخالطهم فيها ويصلّي بهـم ويحكي لهم قصصاً حتى يغـيّر معظمهـم ويجعلهـم موالين لأهل البيـت عليهم السلام ثـم يغادرهم إلى عشيرة ثانية ويمكث فيهم سنة أو أكثر.. وهكذا[(٢)].

٤- هدوء الوضع الداخلي بين الشيعة والعثمانيين في تلك الفترات كان عاملا مسـاعدا، فقد مرت فترة المماليك بهدوء وكان داود باشا غير متشـنج، على خلاف سـابقيه الذين منعوا الشعائر الشـيعية علنا، كما أن

(١) الشيخ محمد حسن النجفي، فقيه إمامي انتهت إليه رئاسة الطائفة في زمانه وأذعن له بالفقه، من تلامذة الشـيخ جعفر كاشـف الغطاء وولده شـيخ موسى، والسيد جواد العامـلي.. توفي سـنة ١٢٦٦ هـ. له الكتاب المعروف بـين الفقهاء (جواهر الكلام في شرح شرائع الاسلام) وهو دورة استدلالية في الفقه الاسلامي ٤٣ مجلدا.
(٢) خاتمة المستدرك، الميرزا النوري، ج ٢، ص ١٢٨.

استراتيجية السلطان عبد الحميد (ت ١٩٠٩) في الدعوة إلى وحدة المسلمين قد ساهمت في تخفيف التشنج. ومن الواضح أن هذه الظروف تخدم التحول العقدي بخلاف حالات التشنج والتصعيد الطائفي.

البريطانيون يعاقبون الشيعة:

على أثر وقوف الشيعة في وجه البريطانيين، ومعارضة المرجعية الشيعية للاحتلال البريطاني وتحشيدها للقبائل، وتحول المقاومة إلى هم إسلامي عام، صمم البريطانيون على إقصاء الشيعة، وجاء الأشراف الذين هم بأنفسهم كانوا مطلبا شيعيا في مقابل الحاكم الانكليزي، فإذا بهؤلاء يتحالفون مع البريطانيين، ويبعدون الشيعة إبعادا تاما.

وقد عمل البريطانيون على عدة مستويات في مواجهتهم للشيعة:

* فمن جهة قاوموا نفوذ الفقهاء بالقول بأنهم لا يمثلون رأي الناس، وأنهم فرس وعملوا على إثارة موضوع عروبة المجتهدين، وأن عليهم أن يتركوا توجيه الشيعة العرب للمجتهدين العرب!

* ومن جهة أخرى التف البريطانيون على الثورة الشعبية، بتعيين فيصل بن الشريف حسين ملكا، وهو الذي كان مطلب العلماء والشريفيين غير أن فيصل كان يضمر تحطيم نفوذ العلماء[1].

تحالف البريطانيون مع الملك فيصل،(حتى في موضوع تحطيم نفوذ

---

(١) في حديثه عن هذا الموضوع قال اسحاق نقاش في شيعة العراق، ص١١٢: إن فيصل كان يتوجس من سلطة المجتهدين ويعمل على اجتثاثها، وفي لقائه مع بيرسي لورين الوزير البريطاني المعين في إيران أعرب الملك بقوة عن الرأي القائل بأنه لا يمكن تحقيق تقدم يبعث على الارتياح ما لم يحطم نفوذ العلماء! وكان متلهفا بصفة خاصة على إضعاف نفوذ المجتهدين الفرس الذين اعتبرهم غير مخلصين للدولة العراقية، ولم يمض وقت طويل حتى سنحت الفرصة لذلك..

العلماء) ولذلك فإن العلماء لما عقدوا مؤتمرا للرد على غارات الوهابيين في عام ١٩٢٢م، سعى المجتهدون (النائيني والاصفهاني أبو الحسن، والخالصي) لتجميع الناس وتشكيل قوة عشائرية للرد على الغزاة، حرض البريطانيون ضد المؤتمر الذي انعقد في كربلاء، وضغطوا على فيصل لكيلا يحضر، وكذلك رفض الشيخ الآلوسي الحضور لكيلا يعارض الوهابيين السعوديين، وفشل المجتهدون فيه في التحريض على البريطانيين[١].

* ومن جهة ثالثة عملوا على إقصاء الشيعة عن المواقع المهمة في الدولة الجديدة: ففي الوقت الذي كان فيه الشيعة أغلبية السكان (بحسب إحصاء بريطاني عام ١٩٣٢) لم يكن هناك وزير شيعي في حكومات العشرينات، وللمفارقة فإن الأكراد الذين كانوا يشكلون ١٧٪ من السكان كان لديهم ٢٢٪ من المناصب الحكومية والشيعة الأكثرية كان لهم ١٥٪ والباقي أي حدود ٦٥٪ كان للسنة.

* كما حركوا دعاة القومية لمهاجمة التشيع باعتباره حالة فارسية: وقد وضع أسس ذلك داعية القومية ساطع الحصري، وهو الذي صور التشيع على انه هرطقة مدفوعة بحقد فارسي على العرب، ووضع مطالبات الشيعة بحقوقهم في إطار الإثارة الطائفية حيث وضعوا الشيعة في موقف دفاعي!.

وصدرت موجة من الكتب الطائفية ضد الشيعة وعروبتهم، منها: العروبة في الميزان لعبد الرزاق الحصان الذي اتهم الشيعة بالولاء الفارسي[٢]!.

---

(١) شيعة العراق: اسحاق نقاش.
(٢) المصدر نفسه.

لقد كانت القومية في رأي باحثين[1] الطبعة الجديدة للتسنن فبالرغم من ظاهرها العلماني والذي يفترض أنه بعيد عن المذهبية إلا أنها تورطت في أشد أشكال الطائفية وأسوئها وتضمنت تحيزا متأصلا ضد الشيعة، الذين وإن كانت لغتهم الأم هي العربية، إلا أنهم حسبوا غير متساوين مع غيرهم بل من الدخلاء في الأمة وأنهم مواطنون من الدرجة الثانية في البلاد.

إن إلقاء نظرة خاطفة على (مطالب) الشيعة التي قدمت إلى الحكومات العراقية المتتابعة في العهد الملكي وهو على سوئه أهون الشرين بالقياس للعهد الجمهوري يكشف عن معاناة الشيعة في العالم العربي والإسلامي وهي واحدة، مرجعها إلى عدم الانصاف، ورفض الاعتراف بهذه المشكلة فضلا عن حلها..

إن التجارب التي حصلت في بعض البلدان العربية ينبغي أن تدرس حتى لا تتكرر، فإن تغير وضع الشيعة في لبنان، وفي العراق أخيرا، لم يتم إلا بعملية جراحية صعبة (حرب أهلية لمدة ١٥ سنة، وسقوط نظام بواسطة عسكر أجنبي).. فمن المهم أن يفكر المهتمون بالوضع العربي والإسلامي أن لا تكون هذه (خريطة طريق) وأنه لكي يتغير وضع الشيعة في منطقة ما فلا بد من مثل هذه العمليات العنيفة!.

يتحدث اسحاق نقاش عن هذه المطالب وأنها تتلخص في التالي:

١- تعيين شيعة في البرلمان والحكومة والخدمات بحسب نسبتهم من السكان.

٢- تدريس الفقه الشيعي في كلية القانون.

---

(١) د. ولي نصر، صحوة الشيعة، ص٨٠.

٣- ضم عضو شيعي إلى أقسام المحكمة في قضايا الميراث.

٤- حرية الصحافة.

٥- توزيع عوائد الوقف على كل المؤسسات الإسلامية بما فيها الشيعية.

٦- استثمار موارد حكومية في الصحة والتعليم في مناطق الشيعة.

وأنت ترى عزيزي القارئ أنها من السهولة بمكان، وغاية في الإنصاف!

الشيعة وفترة الانقلابات على الملكية:

باستثناء فترة عبد الكريم قاسم التي ما بقيت إلا لفترة وجيزة، كانت الحكومات الجمهورية هي الأشد سوءا وسوادا بالنسبة لشيعة العراق الذين صاروا منذ بدايات القرن العشرين أكثرية متصاعدة، فمورس ضدهم الإقصاء الطائفي ضمن عمل مبرمج، وتم العمل على تفتيت الحوزة العلمية بالتدريج، وإهمال مناطقهم.. وتصاعدت المواجهة..في أيام البعثيين ولا سيما فترة حكومة صدام حسين.. حيث بلغ السيل الزبى!.



تاريخ الشيعة في لبنان

عبر أحد الكتاب عن ما يجري في الوسط الشيعي هنا وهناك بأنه (صحوة الشيعة)، بينما رأى آخر أن هذا القرن هو قرن الوعي بالذات الجماعية الشيعية.

لقد أثار الانتصار الذي أحرزته المقاومة الإسلامية، وتيار أهل البيت عليهم السلام في لبنان على العدو الإسرائيلي في واقعتين مهمتين.. التساؤل عن مصادر القوة التي يملكها هذا التوجه، وعن التاريخ الذي جعل منه هذه القوة.

فكيف بدأ التشيع في لبنان حتى وصل إلى هذا المستوى من الكثافة السكانية والقوة السياسية والعسكرية؟.

نظريتان في بداية التشيع

هناك نظريتان في بداية التشيع في لبنان:

١- الأولى هي الرأي المشهور بين أهل منطقة جبل عامل، والذي يقول بأن التشيع قد بدأ بواسطة أبي ذر الغفاري صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فإنه لما بدأ الاعتراض على الاستئثار الأموي أيام الخليفة الثالث، نفي من قبله في البداية إلى الشام، (وجهة ذلك أنه غير معروف بين أهل الشام

كـما هو معـروف في المدينة بين أصحـاب النبي والتابعـين الذين يروون في حقـه الكثير من الأحاديـث المادحة عن رسـول الله، بعكس ذلك في الشـام حيث لا يعرفون عنه شـيئا فلن تجد دعوته في تلك المنطقة صدى أو تأثيرا)..وعندما سـير إلى الشـام لم يبق في عاصمتها دمشـق وإنما سير إلى الأطـراف البعيدة، فكان ذلك سـببا في أن تنتـشر آراؤه في أهل تلك الأطراف خصوصا في الجنوب اللبناني.

وقد يستشـهد أصحاب هذا الرأي بوجود مشـهدين في الصرفند وميـس الجبل ينسـبان لأبي ذر الغفاري.. وقد تبنى هـذا الرأي أكثر من كتب في هذه المسـألة.. منهم الحر العاملي[1]، ومنهم السيد محسن الأمين العاملي[2] (الذي رتب على هذا القول بأنه سـيعد شيعة لبنان بعد بعض أهـل المدينة من أولياء أمير المؤمنين، هم أول من قبل التشـيع) غير أنهم لا يذكرون مصدر هذا القول المشتهر بين الناس.

٢- الثانية ما ذهب إليه باحث معاصر وهو الشيخ جعفر المهاجر،

---

(١) الحر العاملي، محمد بن الحسن: أمل الآمل، ص١٤.

(٢) خطـط جبـل عامـل، وأيضـا ذكر ذلك المحقـق الطهراني آقـا بـزرك في مقدمة كتاب الـصراط المسـتقيم فقال: وكان غـارس بذرة التشـيع في تلك البلاد، من الشـام وما والاها، هو الصحابي الجليل أبو ذر الغفاري، فقد نفاه عثمان إلى الشـام فالتف أهلها حوله، وتنقل في بعض قراها وكان لدعوته أثرها الطيب، ولغرسه ثمره الجني ، فقد تشيع على يده يومذاك كثير من الناس، و نما التشيع شيئا فشيئا في تلك الأطراف حتى أصبحت عاملة من بلاد الشـيعة المعدودة.. راجع الصراط المسـتقيم، علي بن يونس العامـلي: ج ٢، ص٥.. وقـد عزا ذلك إلى تاريخ اليعقوبي الجـزء الثاني، وبالرغم من البحـث في الكتـاب المذكور إلا أنـه لا يتبين شيء واضح مما ذكر، فـإن اليعقوبي ذكر كـما ذكـر غيره حوادث نفي أبي ذر الغفاري إلى دمشـق ثم إلى المدينـة وأخيرا الربذة، مـن دون إشـارة إلى ذهابه أو تأثيره المذهبي في جبل عامل بلبنـان، والذي كان قصيا بحسـب مقاييس ذلك الزمان عن دمشق.. ومنهم الشـيخ السبحاني في كتابه أضواء على عقائد الشيعة ٣٢٠.

الـذي فنـد هذا الرأي في كتابه التاسـيس لتاريخ شـيعة لبنان وسـورية، واعتبره أسـطورة، بل رأى أن العملية هي عملية إسـقاط، فكما أن أهل جبل عامل كانوا قد رفضوا الاتجاه الرسمي فعوقبوا على ذلك بإبعادهم وإقصائهم وتهجيرهم، كان أبو ذر وما عاشـه من المعاناة أفضل نموذج لهم.. ليتمثلوه، ورأى أن المشـهدين في الصرفند وميس الجبل، هما أشبه بالنصب الذي يقام في البلدان لتكريم بعض الشخصيات[1]..

واختـار رأيا آخر وهو أن تشـيع لبنان كان على اثر هجرة ضخمة من القبيلة الشـيعية المعروفة همدان، التي تكامل قدومها إلى الكوفة بعد انتقال الإمام علي إلى الكوفة واتخاذها عاصمة له سنة ٣٦ هـ (بعد حرب الجمل) مباشرة، وإن كانت قد بدأت الهجرة إليها منذ تأسيسـها الكوفة حـوالي سـنة ١٧ هـ، فإنها كانـت القبيلة الأكثر عـددا حينئذ بين القبائل القادمة والتي استوطنت الكوفة.

ونحـن نعتقـد أن ما ذهب إليـه الباحث المهاجر هـو الأقرب إلى الصحة، لوجود قرائن كثيرة تشـير إليه وتدل عليه وسـوف نتعرض إلى ذكر ما قاله بتلخيص.

قبيلة همدان الشيعية

أسـلمت على يد أمـير المؤمنـين في اليمن، حيث أقام فيهم سـنة: الثامنـة أو التاسـعة كـما في السـيرة الحلبيـة. وكانـت الكوفة محـل إقامة الهمدانيين، وتعد من أكبر القبائل التي استوطنت الكوفة عند تأسيسها، وفيما بعد حيث تتابعت هجرة أفرادها من اليمن[2].. وكانوا في الحروب

(١) التاسيس لتاريخ شيعة لبنان وسورية: ص٣٥ .
(٢) اليمـن كان الخـزان البشري لهجرات متعددة منها بنو قيلـة الذين هاجروا إلى الحجاز

مع الإمام علي عليه السلام ولم يكن مع معاوية أي أحد من همدان كما نقل عن مروج الذهب.

ويقدر عددهم في الكوفة التي كانت أسباعا بها بين ٤٠- إلى ٥٠ ألفا، باعتبار أن عدد الكوفة كما في فتوح البلدان، وخطط الكوفة حدود ٣٠٠ ألف[1]..

يعتقد المؤلف أن قبيلة همدان التي كانت الأولى في الكوفة من حيث العدد والدور، تراجع وضعها للغاية بعد سيطرة معاوية على الأمور، إلى حد أن الباحث يرى كأنهم قد تبخروا من الكوفة، وآخر مشاركة فاعلة لديهم كانت أيام الإمام الحسن المجتبى، فإنهم لم يشتركوا بفاعلية في قضية كربلاء.. ولا في حركة التوابين، بل ولا المختار ولا ذكر لها أيضا في حركة عبد الرحمن بن الأشعث.. وهي فترة طويلة (٦١-٨٣).. وهذا كله يشير إلى هجرة همدان من الكوفة في معظمها.. تماما مثلما حدث للأشعريين (من مذحج) الذين هاجروا من الكوفة على اثر هزيمة بن الأشعث وقد كانوا شاركوا معه! واتجهوا إلى قم (ويأتي الحديث عن هذه الجهة في تشيع إيران).

شيء عن إسلام اليمن ودور همدان:

يتحدث كتاب السيرة عن أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد بعث الإمام عليا عليه السلام

واستقروا في المدينة وعرفوا فيما بعد باسم الأوس والخزرج. ومنهم عاملة التي هاجرت في وقت مبكر إلى لبنان، وسكنت الجبل الذي سمي بعد ذلك باسمها، ويعتقد أن هجرة بني عاملة إلى الجبل كانت حوالي ٣٣٢ قبل الميلاد. راجع سيد حسن الأمين دولة الموحدين وكتابات أخرى.

(١) قد يرد تقريب آخر للعد في الحديث عن التشيع في العراق، وذلك قد يكون راجعا إلى اختلاف الفترات الزمنية، أو اختلاف أصحاب التقدير السكاني.

إلى اليمـن في آخر سـنة ثـمان من الهجرة وذلـك بعد فتح مكـة، بعثه إلى همـدان ليدعوهم إلى الإسـلام فأسـلمت همدان كلها في يـوم واحد قال المفيـد رَحِمَهُ اللهُ في الارشـاد: ومن ذلـك ما أجمع عليه أهل السـيرة أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بعث خالد بن الوليد إلى أهل اليمن يدعوهم إلى الإسـلام وانفذ معه جماعة من المسـلمين فيهم البراء بن عازب رحمه الله وأقام خالد على القوم سـتة أشـهر يدعوهـم فلم يجبه أحد منهم فسـاء ذلك رسـول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فدعـا أمير المؤمنـين عَلَيْهِ السَّلَامُ وأمره أن يقفل خالـدا ومن معه وقال لـه إن أراد أحد ممن مع خالد أن يعقب معـك فاتركه، قال البراء فكنت ممـن عقب معه فلما انتهينا إلى أوائل أهل اليمن وبلغ القوم الخبر تجمعوا لـه فصلى بنا علي الفجر ثم تقـدم بين أيدينا فحمد الله وأثنى عليه ثم قرأ على القوم كتاب رسـول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فأسـلمت همدان كلها في يوم واحد وكتـب بذلك أمير المؤمنين إلى رسـول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فلما قرأ كتابه اسـتبشر وابتهج وخر سـاجدا شكرا لله تعالى ثم رفع رأسه وجلس وقال السلام على همدان ثم تتابع بعد إسلام همدان أهل اليمن على الإسلام.

وقـال ابـن الأثير أنـه قال السـلام على همـدان ثلاثا وفي السـيرة الحلبية كان رسـول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ارسـل خالد بن الوليـد إلى اليمن لهمدان يدعوهم إلى الإسـلام قال البراء فكنت ممن خرج مع خالد فأقمنا سـتة أشهر ندعوهم إلى الإسلام فلم يجيبوا ثم أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بعث علي بـن أبي طالـب عَلَيْهِ السَّلَامُ وأمره أن يقفل خالدا ويكـون مكانه فلما دنونا من القوم خرجوا إلينا وصلى بنا علي ثم صفنا صفا واحدا ثم تقدم بين أيدينا وقرأ عليهم كتاب رسول الله بإسلامهم فأسلمت همدان جميعا[1].

(١) الشـافعي مختـصراً في كتاب الأم، ج ١، ص ١٥٩: والسـيد الأمـين مفصلا في أعيان الشيعة: ج١، ص٤١٠.

إسـلام همدان بهـذا الشـكل (الدراماتيكي) والسريـع، وقبولهم الديـن عـلى يد الإمـام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ في يـوم واحد، بينما مكـث فيهم غيره مدة من الزمن ولم يقبلوا منه، حدد وجهتهم المسـتقبلية في الولاء القوي للإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومناصرتهم إياه واختيارهم طريقه عندما تفرقت الطرق بالمسلمين.

وكانت حـروب الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ أيام خلافتـه الظاهرية هي الميدان الـذي ظهرت فيـه تضحيـات الهمدانيين.. ففـي حرب الجمـل فكانوا يتنافسون مع ربيعة في الفوز بالوسام الأعلى للتضحية والقتال بين يدي الإمـام عَلَيْهِ السَّلَامُ، ويبادرون لمنازلة أعدائه كما قال سـعيد بن قيس الهمداني قائدهم فيها:

قـل للـوصي أقبلـت قحطانهـا فـادع بهـا تكفيكهـا همدانهـا

هـم بنوهـا وهـم إخوانهـا

وأمـا في حـرب صفين، فقد « قتل بنو همـدان خلقا كثيرا من أهل الشام، فقال معاوية: بنو همدان أعداء عثمان »[1].

وشكر لهم الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ موقفهم ذاك، فمدحهم نثرا وشعرا، ومما يؤثر عنه فيهم قوله:

ولـما رأيـت الخيـل تقـرع بالقنـا فوارسـها حمـر العيـون دوامـي
ونادى ابن هند ذا الكلاع ويحصبا وكنـدة في لخـم وحـي جـذام
تيممـت همـدان الذيـن هـم إذا نـاب أمـر جنتـي وسـهامي
وناديـت فيهـم دعـوة فأجابنـي فـوارس مـن همـدان غـير لئـام
فـوارس من همـدان ليسـوا بعزل غـداة الوغـا مـن يشـكر وشـبام

(١) ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب: ج ٢، ص ٣٥٦.

ومن أرحب الشم المطاعين بالقنا ورهم وأحياء السبيع ويام
ومن كل حي قد أتتني فوارس ذوو نجدات في اللقاء كرام
بكل رديني وعضب تخاله إذا اختلف الأقوام شعل ضرام
يقودهم حامي الحقيقة منهم سعيد بن قيس والكريم يحامي
فخاضوا الظاها واصطلوا بشرارها وكانوا لدى الهيجا كشرب مدام
جزى الله همدان الجنان فإنهم سهام العدى في كل يوم خصام
لهمدان أخلاق ودين يزينهم ولين إذا لاقوا وحسن كلام
أناس يحبون النبي ورهطه سراع إلى الهيجاء غير كهام
فلو كنت بوابا على باب جنة أقول لهمدان ادخلوا بسلام[1]

وبرز منهم في صحابته غير واحد من الرجال والنساء، فمنهم سعيد بن قيس الهمداني، قائد همدان في صفين والذي تقدم ذكره في شعر الإمام عليه السلام باعتباره حامي الحقيقة! وكان المسارع في الاجابة للامام عندما استنهض الناس لقتال أهل الشام، فقد قام هذا قائلا: يا أمير المؤمنين والله لو أمرتنا بالمسير إلى قسطنطينية ورومية مشاة حفاة على غير عطاء ولا قوة ما خالفتك أنا ولا رجل من قومي، قال: فصدقتم جزاكم الله خيرا[2]. وعندما اختلف الناس في قضية رفع المصاحف جاء سعيد بن قيس في قومه للامام ينتظرون منه الأمر قائلا: ها أنا ذا وقومي لا نرادك ولا نرد عليك فمرنا بما شئت. قال عليه السلام اما لو كان هذا قبل سطر الصحيفة لأزلتهم عن عسكرهم أو تنفرد سالفتي قبل ذلك، ولكن انصرفوا راشدين، فلعمري ما كنت لأعرض قبيلة واحدة للناس[3].

(١) الأحمدي الميانجي، مكاتيب الرسول: ج٢، ص٦٧٦.
(٢) إبراهيم بن محمد الثقفي، الغارات: ج ٢، ص ٦٣٧.
(٣) نهج السعادة، الشيخ المحمودي: ج ٨، ص٤٧٣/ ٤٧٤.

ومنهـم الحارث (الأعور) بـن عبد الله الهمداني الـذي أثنى عليه بالإضافة إلى علماء الشيعة، عدد من رجاليي السنة فقد «عده ابن قتيبة في المعارف ص ٣٠٦ من الشيعة في عداد صعصعة بن صوحان وأصبغ بن نباتـه وأمثالهما، وترجم له الذهبـي في (ميزان الاعتدال)، ج ١ ص٢٠٢ وقال: من كبار علماء التابعين. ونقل هو وابن حجر في تهذيب التهذيب ص١٤٥ عـن أبي بكـر ابـن أبي داود أنه قـال: كان الحـارث أفقه الناس وأحسـب الناس، وأفرض الناس، تعلـم الفرائض من علي عليه السلام. وفي (خلاصة تهذيب الكمال) ص ٥٨: انه أحد كبار الشيعة»[1].

وكان من كتاب علم أمير المؤمنين عليه السلام، فقد نادى الإمام عليه السلام: من يشتري علما بدرهم، فقام الحارث واشترى صحفا بدرهم، وجاء إلى الإمام فكتب له علما كثيرا، حتى قيل إنه ليس أحد أعلم بفريضة منه[2].. وكان يخصه بمحبته ويبادله إياها كما ذكر ذلك العلامة الأميني في الغدير فقـال: ورد قوم من الشـيعة على الإمام وهو فيهـم فجعل يعني الحارث يتـأود في مشـيته ويخبط الأرض بمحجنه وكان مريضـا فأقبل عليه أمير المؤمنين عليه السلام وكانت له منه منزلة فقال: كيف تجدك يا حارث؟!.

قال: نال الدهر مني يا أمير المؤمنين! وزادني أوارا وغليلا اختصام أصحابك ببابك!.

قـال: وفيم خصومتهم؟ قال: في شـأنك والبليـة من قبلك، فمن مفـرط غـال، ومقتصد قـال، ومن مـتردد مرتـاب، لا يـدري أيقدم أو يحجم.

---

(١) الغدير، ج ١١، ص ٢١٨.
(٢) الغارات، ج٢، ص ٧١٨.

قال: فحسبك يا أخا همدان؟ ألا إن خير شيعتي النمط الأوسط، إليهم يرجع الغالي وبهم يلحق التالي.

قال: لو كشفت فداك أبي وأمي الرين عن قلوبنا وجعلتنا في ذلك على بصيرة من أمرنا.

قـال: فذاك فإنه أمر ملبوس عليـه، إن دين الله لا يعرف بالرجال بل بآية الحق، فاعرف الحق تعرف أهله، يا حار! إن الحق أحسن الحديث والصادع به مجاهد، وبالحق أخبرك فأعرني سمعك ثم خبر به من كانت لـه حصانة من أصحابك ألا إني عبد الله وأخو رسـوله و صديقه الأول في امتكـم حقـا، فنحن الأولـون ونحن الآخـرون، ألا وأنـا خاصته يا حـار! وخالصته وصنـوه ووصيه ووليه صاحب نجـواه وسره، أوتيت فيهم الكتاب وفصل الخطاب وعلم القرون والأسـباب، واسـتودعت ألـف مفتـاح يفتـح كل مفتاح ألف بـاب يفضي كل بـاب إلى ألف ألف عهـد وأيـدت. أو قال: امددت بليلـة القدر نفـلا، وإن ذلك ليجري لي ومن اسـتحفظ من ذريتي ما جرى الليل والنهار حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

وأبشرك يا حارث! ليعرفني والذي فلق الحبة وبرء النسـمة وليي وعـدوي في مواطـن شـتى، ليعرفني عند الممات وعند الـصراط وعند المقاسـمة قال: وما المقاسـمة يا مولاي؟! قال: مقاسـمة النار أقاسـمها قسمة صحاحا أقول: هذا وليي وهذا عدوي..

ومنهـم غـير واحدة مـن النسـاء الهمدانيات اللاتي كن يشـجعن أقاربهـن في المعركة على قتال جيش معاويـة ونصرة الإمام عليه السلام، حتى اسـتقدمهن معاويـة فيـما بعـد استشـهاد الإمـام لتوبيخهـن ولكن كان

مواقفهن في تلك الحوادث شجاعة وصامدة كمواقفهن في الحروب.. منهن سوادة بنت عمارة التي وفدت على معاوية بن أبي سفيان لها فلما دخلت عليه قال هيه يا بنت الأسك الست القائلة يوم صفين:

شمر كفعل أبيك يا ابن عمارة يوم الطعان وملتقى الاقران
وانصر عليا والحسين ورهطه واقصد لهند وابنها بهوان
ان الإمام أخو النبي محمد علم الهدى ومنارة الإيمان
فقه الحتوف وسر أمام لواءه قدما بأبيض صارم وسنان

قالت: إي والله ما مثلي من رغب عن الحق أو اعتذر بالكذب!.

قال لها: فما حملك على ذلك؟. قالت: حب علي عليه السلام واتباع الحق!.

قال: فو الله ما أرى عليك من اثر علي شيئا.

قالت: أنشدك الله يا أمير المؤمنين وإعادة ما مضى وتذكار ما قد نسي. قال: هيهات ما مثل مقام أخيك ينسى وما لقيت من أحد ما لقيت من قومك وأخيك. قالت صدق فوك لم يكن أخي ذميم المقام ولا خفي المكان كان والله كقول الخنساء:

وان صخرا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

قال: صدقت! لقد كان كذلك. فقالت: مات الرأس وبتر الذنب وبالله أسال أمير المؤمنين إعفائي مما استعفيت منه!. قال: قد فعلت فما حاجتك؟.

قالت: انك أصبحت للناس سيدا ولأمرهم متقلدا والله سائلك من أمرنا وما افترض عليك من حقنا ولا يزال يقدم علينا من ينوه بعزك ويبطش بسلطانك فيحصدنا حصد السنبل ويدوسنا دوس البقر ويسومنا الخسيسة ويسلبنا الجليلة! هذا بسر بن أرطاة قدم علينا من

قبلـك فقتل رجـالي واخذ مالي ولـولا الطاعة لكان فينا عـز ومنعة فاما عزلته عنا فشكرناك وأما لا فعرفناك!.

فقـال معاوية: أتهدديني بقومك لقد هممـت ان أحملك على قتب أشرس فأردك إليه ينفذ فيك حكمه فأطرقت تبكي ثم تقول:

صـلى الالـه عـلى جسـم تضمنـه قـبر فأصبـح فيـه العـدل مدفونـا
قـد حالـف الحق لا يبغـي به بدلا فصـار بالحـق والإيـمان مقرونـا

قال لها: ومن ذلك؟ قالت: علي بن أبي طالب عليه السلام!.

قال: وما صنع بك حتى صار عندك كذلك؟.

قالـت: قدمـت عليه في رجـل ولاه صدقتنـا قدم علينـا من قبله فكان بيني وبينه ما بين الغث والسـمين فاتيت عليا عليه السلام لأشـكو إليه مـا صنع بنـا فوجدته قائـما يصلي فلما نظـر إلي انفتل من صلاتـه ثم قال لي برأفـة وتعطف ألك حاجة؟ فأخبرته الخـبر فبكى ثم قال: اللهم انك أنت الشـاهد علي وعليهم اني لم آمرهم بظلم خلقك ولا بترك حقك ثم اخـرج مـن جيبه قطعة جلد كهيئة طرف الجواب فكتب فيها (بسـم الله الرحمن الرحيم قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين بقية الله خير لكـم ان كنتم مؤمنين وما انا عليكـم بحفيظ إذا قرأت كتابي فاحتفظ بما في يديك من عملنا حتى يقدم عليك من يقبضه منك والسـلام فأخذته منه والله ما ختمه بطين ولا خزمه بخزام فقراته.

فقـال لها معاويـة: لقد لمّظكم ابن أبي طالب الجرأة على السـلطان فبطيئاً ما تفطمون!.

ثـم قال: اكتبـوا لها برد مالها والعدل عليهـا! قالت: إلي خاص أم لقومي عام؟.

قـال: مـا أنت وقومك قالت هي والله اذن الفحشـاء واللوم ان لم يكن عدلا شاملا وإلا فانا كسائر قومي قال اكتبوا لها ولقومها[1].

ومنهن الزرقاء الهمدانية وغيرهما..

كان مـن الطبيعي وقد بـدأ الضغط على أنصار الإمـام في الكوفة وتعرضهـم لصنـوف الاضطهـاد السـياسي والحرمـان المـالي، والإيذاء الاجتماعي[2].. وكل ذلك كان بمراسـيم حكوميـة كما يذكر المدائني في

(١) ابن طيفور، بلاغات النساء: ٣٠.

(٢) بلـغ ذروة ذلـك في أيام الحجاج الثقفي، فها هو يجبر زعيم همدان، أن يزوج ابنته صاغرا من شـخص من حي من قحطـان أعداء همدان العقديين ومقاتليهـم في صفين كما نقله أهـل السـير: فقـد وروى ابن الكلبي عن أبيـه، عن عبد الرحمن بن السـائب، قال: قال الحجـاج يومـا لعبـد الله بن هانئ -وهـو رجل من بنـي أود- حي من قحطـان، وكان شريفا في قومه قد شهد مع الحجاج مشاهده كلها وكان من أنصاره وشيعته-: والله، ما كافأتك بعد، ثم أرسـل إلى أسـماء بن خارجة سـيد بني فزارة أن زوج عبد الله بن هانئ بابنتك، فقال: لا، والله، ولا كرامة، فدعا بالسياط، فلما رأى الشر قال: نعم أزوجه، ثم بعث إلى سـعيد بن قيـس الهمداني رئيس اليمانية زوج بنتك من عبـد الله بن أود، فقال: ومن أود؟ لا والله لا أزوجه ولا كرامة، فقال: عليّ بالسيف، فقال: دعني أشاور أهلي، فشـاورهم فقالوا: زوجه ولا تعرض نفسك لهذا الفاسـق، فزوجه. فقال الحجاج لعبد الله: قـد زوجتك بنت سـيد فزارة وبنت سـيد همـدان وعظيم كهلان ومـا أود هناك!، فقال: لا تقل -أصلح الله الأمير- ذاك، فإن لنا مناقب ليسـت لأحد من العرب، قال: وما هي؟ ما سـب أمير المؤمنين عبد الملك في ناد لنا قط. قال: منقبة والله، قال: وشـهد منـا صفين مع أمير المؤمنين معاوية سـبعون رجلا، ما شـهد منا مـع أبي تراب إلا رجل واحد وكان والله ما علمته امرء سـوء، قال: منقبة والله، قال: ومنا نسـوة نذرن إن قتل الحسـين بـن علي أن تنحر كل واحدة عشر قلائص، ففعلـن، قال: منقبة والله، قال: وما منـا رجـل عرض عليه شـتم أبي تراب ولعنه إلا فعل وزاد ابنيه حسـنا وحسـينا وأمهما فاطمة، قال: منقبة والله.. (راجع: شرح النهج، ج٤، ص٦١).

كتابه الأحداث، وغيره من مؤرخي تلك الفترة أن يختار هؤلاء المواجهة أو المهاجـرة أو المهادنـة.. ولم تكن الظروف تتحمـل الخيار الأول، ولا أنفسهم تتحمل الخيار الأخير فبقي المتوسط وهو أن يهاجروا إلى أماكن بعيـدة عن مركز الاضطهاد.. ولهذا فعلى اثـر الأحداث التي تلت (عام الجماعة) هاجر الهمدانيون من الكوفة، وتوجهوا إلى جهتين: سكن قسم منهم حمص (الشـام)، ومضى القسـم الآخـر إلى بعلبك بلبنـان.. وربما يشير إلى هذا الوجود في حمص خطاب عبد الملك لهم بأنهم أهل الكويفة مقرعا ومعرضا..

بينما أشـار ياقوت الحموي بأن أهل حمص كانوا اشـد الناس على عـلي ومع معاويـة (في أول الأمر) فلـما انقضى ذلك الزمـان صاروا من (غلاة الشـيعة). وهذا يشـير إلى الأثر على الصعيـد المذهبي الذي خلفه الهمدانيـون في الحميريين الذين سـكنوا إلى جانبهم في حمص وقد كانت همدان من جملة القبائل التي سكنت حمص كما يقول ابن واضح اليعقوبي في كتابه البلدان[1].

****

بطبيعـة الحـال لن يكون الحديث عن هـذه المناطق ضمن المفهوم السـياسي الحديث لها كأجزاء من دول تفصلها حـدود عن بعضها، بل ينبغـي أن يكون الحديث ضمـن المنظور التاريخي الـذي كان يعتبر هذه المناطـق واحدة من الناحيـة الجغرافية. ولذلك يمكن القـول أن مناطق حلـب وجبلة واللاذقية في السـاحل السـوري، وطرابلـس وبعلبك في لبنان كانت منطقة واحدة من حيث سـكن القبيلة الهمدانية وتأثيرها في

(١) التأسيس: مصدر سابق.

جوارها من القبائل العربية الأخرى.

بـل امتد التشـيع إلى أطراف فلسـطين والأردن، فهذا المقدسي في أحســن التقاسـيم يقول (ح ٣٧٥): أهل طبرية ونصـف نابلس وقَدَس وأكثـر عمّان شـيعة.. وأهـل طبرية هم قوم من الأشـعريين كما في بلدان اليعقوبي (والأشعريون من مذحج) نسبا، وإخوة همدان عقيدة ومذهبا. كما كان التشـيع موجودا في ديار بكر، ويشـير إلى ذلك أن أسرة مؤسس الدولة الحمدانية كانت في تلك الديار.

منتصف القرن الرابع: طور وضوح الحالة الشيعية:

يمكن اعتبـار القرن الرابع الهجري وما بعده طور وضوح الحالة الشيعية في المنطقة الشامية (شمال الشام ولبنان) ففي هذه الفترة استطاع الحمدانيـون السـيطرة على حلـب والموصل ثم دمشـق ومـا جاورها.. وبالرغم من أنهم شجعوا الأدب والثقافة والعلم عموما، إلا أن حرصهم على إبراز الحالة الشـيعية كان واضحا، وما قصائد أبي فراس الحمداني، إلا شاهد على ذلك. ونحن لا نستطيع أن نقبل ما ذكره الباحث المهاجر من اعتباره (فترة الحمدانيين من باب الانتهازية العسـكرية فرض عليها فرضـا أن تتخذ قناعا شـيعيا بسـبب الحاجة إلى التماهـي والتجانس مع الجمهـور)[1]، فهـو وإن صـح أن الجمهور كان شـيعيا في حلب في تلك الفترة، إلا أن ذلك لا ينفي كون مذهبية الحمدانيين عقدية!.

« قـال ياقوت: حلب مدينـة عظيمة طيبة الهـواء صحيحة الأديم والمـاء اهـ، دخلها التشـيع قبل عهد الحمدانيـين وانتشر وقوي فيها على عهدهم قال ابن كثير الشامي في تاريخه: كان مذهب الرفض فيها في أيام

(١) التأسيس ٨٦: مصدر سابق.

سلطنة الأمير سيف الدولة بن حمدان رائجا رواجا تاما »[1].

هـذا في حلب وأطرافها، وأما بعلبك فيشـير أبو واضح اليعقوبي في كتابـه البلدان إلى أن في أطراف بعلبك قوما من اليمن، وكان ذلك في أواخر القرن الثالث[2].

ويلاحظ أن في بعلبك بابا باسم باب همدان، وكما يصرح الذهبي بغلبة (الرافضة) على تلك الناحية.

دولة بني عمار في طرابلس:

يتحدث المؤرخون[3] عن دولة شـيعية نشـأت في طرابلس الشام (تمييـزا لها عن طرابلـس الغرب في ليبيا)، فإن بني عمار كانوا شـيعة من سـادات كتامة من بلاد المغرب وجـاءوا منها إلى مصر مع الفاطميين ثم جاءوا إلى طرابلس الشام وكانوا قضاتها وحكامها، وكان أهل طرابلس الشام في ذلك العصر إمامية اثني عشرية.

وبقيـت بأيديهـم نحوا من ٨٠ سـنة من أواسـط القـرن الخامس الهجـري إلى سـنة ٥٠٢هــ، حـين اخذهـا منهـم الفرنـج في الحـروب الصليبية.

ويذكـر كـما في دائرة المعارف الإسـلامية اسـم بني عـمار مقرونا بمدينـة طرابلـس في أوج عظمتهـا. وكـما كانـت حلب في عهد سـيف الدولـة الحمداني مركزا للشـعر كذلك كانت طرابلـس في عهد القاضي الحسـن بن عمار مركزا ممتازا للحركة العلمية، فقد كان فيها مكتبة يقال

---

(١) أعيان الشيعة، السيد محسن الأمين، ج١/ ٢٠٠.
(٢) المهاجر، جعفر، في التأسيس لتاريخ الشيعة في لبنان وسورية.
(٣) أعيان الشيعة، السيد محسن الأمين، ج ٥/ ٢١٧.

إنها كانت تضم ما يربو على مائة ألف مجلد. كتاب ومن هذه المكتبة انتشر العلم في انحاء المدينة حتى قال المؤرخون ان طرابلس صارت جميعها دار علم وفي هذه المكتبة مائة وثمانون رجلا لا عمل لهم الا نسخ الكتب يتناولون مقابل صناعتهم مرتبات ولها أناس مخصصون للبحث عن الكتب وشرائها لجمعها في هذه المكتبة.

وأما ناصر خسرو فقد وصف طرابلس في الثلث الأول من القرن الخامس (سنة ٤٣٨) بأن سكانها شيعة وأنهم شيدوا مساجد جميلة في كل البلاد. وعندما وصل إلى (صور) في الجنوب، ذكر أن أكثر أهلها شيعة.

ويعطينا ابن جبير الاندلسي صورة عن دمشق وقد زارها في ٥٨٠هـ، فقال في كتابه الرحلة: وللشيعة في هذه البلاد أمور عجيبة وهم أكثر من السنيين بها، وقد عمروا البلاد بمذاهبيهم المختلفة! ثم يتحدث عن المشاهد المرتبطة بآل البيت في الشام.

كما أن تواجد علماء الطائفة في المنطقة يشير إلى وجوده التشيع وتأصله فيها.. وذلك أن انبعاث حركة علمية وبروز علماء من نفس المنطقة لا بد أن ينبئ عن وجود جماهيري مهم، ينبعث منهم ﴿طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾.

علماء على مستوى الطائفة وعوائل علمية:

ولو تأملنا في تلك الفترة لوجدنا أن المنطقة قد أبرزت علماء ليسوا على مستوى منطقة سورية أو لبنان بل كانوا بمستواهم على مستوى علماء الطائفة الكبار! بل برز في تلك المنطقة ظاهرة العوائل العلمية مثل (آل أبي شعبة) و (بني زهرة).

فمن علماء تلك المنطقة في تلك الفترة:

* الشيخ علي بن الحسن بن شعبة: مؤلف الكتاب القيم (تحف العقول عن آل الرسول).. توفي في حدود ٣٧١هـ، قال عنه السيد حسن الصدر في كتابه تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام: «شيخنا الأقدم وإمامنا الأعظم له كتاب تحف العقول فيما جاء في الحكم والمواعظ عن آل الرسول، كتاب جليل لم يصنف مثله...».

* الشيخ أبو الصلاح تقي الدين بن نجم الحلبي صاحب كتاب الكافي في أصول الدين وفروعه (٣٤٧-٤٤٧هـ) والذي ترجمه الشيخ الطوسي مع أنه استاذه فقال: تقي الدين بن نجم ثقة له كتب قرأ علينا وعلى المرتضى [1] كما ذكره الشهيد الثاني بقوله: «الشيخ الفقيه السعيد خليفة المرتضى في البلاد الحلبية».

* والشيخ أبو الفتح محمد بن علي الكراجكي الطرابلسي (ت٤٤٩هـ) صنف كتبا كثيرة جدا، وهو من تلامذة الشيخ المفيد، والشريف المرتضى، أخذ عنهما ثم عاد إلى بلده طرابلس وبقي فيها، ويظهر من مقدمة بعض كتبه انتشار الشيعة في أنحاء متعددة من لبنان، فقد كتب كتاب (انتفاع المؤمنين من أموال السلاطين) للإخوة في صيدا، وأحكام النكاح للأمير ذخر الدولة في صيدا، وكتب (الأصول في مذهب آل الرسول) وكان ذلك للإخوة بصور، وكتاب (الرسالة الناصرية) لناصر الدولة في دمشق.

* الشيخ أبو القاسم عبد العزيز بن نحرير بن براج الطرابلسي (ت ٤٨١ هـ)، تلميذ السيد المرتضى، وزميل الشيخ الطوسي في ذلك

(١) رجال الطوسي، ص ٤٥٧.

وتلميذه بعد المرتضى، المعروف بالقاضي ابن البراج صاحب كتاب (المهذب) في الفقه والجواهر، المعالم، المنهاج، الكامل، روضة النفس في أحكام العبادات الخمس، المقرب، المهذب، التعريف، شرح جمل العلم والعمل للمرتضى رَحِمَهُ اللهُ، تولى قضاء طرابلس عشرين سنة وقيل ثلاثين سنة..

* السيد أبو علي ابن أبي الفضل المجد الحلبي صاحب كتاب (إشارة السبق إلى معرفة الحق) في أصول الدين وفروعه، والذي يرى بعض العلماء أنه كان معاصرا للشيخ الطبرسي (ت ٥٤٨ هـ).

* والسيد أبو المكارم بن زهرة صاحب كتاب غنية النزوع إلى علمي الأصول والفروع (٥١١- ٥٨٥هـ).

الشيعة يواجهون المغول في البقاع[1]:

عندما وصل المغول إلى البقاع اللبناني سنة ٦٥٨ هـ، كان هناك موقفان: موقف غير شيعي، تزعمه تقي الدين الحشائشي، وهو طبيب شعبي استفاد من خبرته بالطب الشعبي، ليقدم للمغول الوصفات الطبية، وأنقذ جماعته بعد أن تزعم وفدا إلى دمشق وعاد من المغول بصك أمان!.

وموقف شيعي نادى فيه بالجهاد فقيه شيعي بعلبكي هو أحمد بن الحسن بن ملي البعلبكي، (٦١٧-٦٩٩هـ) وظل يشن الغارات على طريقة حرب العصابات على المغول وكان معه قريب من عشرة آلاف شخص![2].

---

(١) للتفصيل في هذا الموضوع راجع التأسيس لتاريخ الشيعة: مصدر سابق.

(٢) هنا لا بد أن نشير إلى سياسة الكيل بمكاييل متعددة عند بعض الطائفيين، فهم هنا

بعد اندحـار المغول برز آل حرفوش (الحرافشـة) كعائلة شـيعية وصاروا أسياد المنطقة..وشادوا فيها المساجد وظلت أمارتهم لمدة قرنين من الزمان. وفي نفس الفترة برزت كرك نوح غرب البقاع كمركز علمي شيعي.

القرن الثامن ومرجعيات شيعية:

ظهر للشيعة علماء ومجتهدون على مستوى عال من المعرفة، حتى تجاوزوا محيطهم المحلي في مرجعيتهم إلى بقية أنحاء العالم الشيعي.

* فهذا الشـيخ محمد بن مكي العاملي (الشهيد الأول): (٧٣٤-٧٨٦هـ)، يُطلـب مـن قبـل حكومـة (السربداريـة) التي تأسسـت في خراسـان على يد الشـيعة الاثني عشرية بعد ثورتهم على المغول، ليكون شـيخ الإسـلام في تلك الدولة الناشـئة، الأمر الذي اعتذر عنه، وكتب لهـم (اللمعة الدمشـقية) في فروع الفقه. وقد جـاء في ترجمته أنه قرأ على علـماء جبل عامل.قبل أن يذهب إلى العراق. كما كان يتردد على دمشـق لارشـاد المؤمنين فيها، وبعض كتبه ألفها ايام كونه فيها. وهذا يشـير إلى توطن العلم الديني في جنوب لبنان حيث كانت بلدته.. وانتشار الحالة الشيعية إلى دمشق.

لا يرون بأسا في قيام هذا الزعيم الاجتماعي بتأمين وضع قبيلته وقومه وأهل مذهبه، ووقايتهـم من المواجهـة مع المغول الذين كانـوا كالعاصفة تقتلع مـا أمامها، فوصل إلى نتيجـة أن مـن الحكمة أن يأخـذ الأمان لهم.. وقد نختلـف أو نتفق معه لكن هذا تقديـره لمصلحـة قومـه في ذلك الزمان.. ولكن من الخطأ أن نحسـب هـذا تآمرا من قبل أهل السـنة مع المغول وسـعيا منهم لتثبيت احتلالهم لبلاد الإسلام ، فهلا وسع الفيلسـوف العالم نصير الدين الطوسي وعلماء الحلة الفقهاء من العذر ما وسـع تقي الدين الحشائشي!.

بل إنه « قد استحدث الشهيد الأول نظاما خاصا لجباية الخمس وتوزيع العلماء في المناطق، وكان لهذا العمل الفكري والثقافي والتنظيمي الذي نهض به الشهيد ومن خلفه من فقهاء الشيعة دور كبير في حفظ التشيع في بلاد الشام »[1].

وقد تكرست (كرك نوح في بعلبك)[2] كحاضرة علمية مهمة لدراسة العلم الديني الجعفري، فانجبت شخصية بمستوى الشيخ علي عبد العال المعروف بالمحقق الكركي الشيخ علي بن عبد العال (ت٩٤٠هـ) صاحب جامع المقاصد والذي كانت دراسته في معظمها في تلك المنطقة والذي بقي في بلده كرك مدرسا ومفتيا إلى أن استدعاه الشاه طهماسب الصفوي ليكون شيخ الإسلام في بلاد إيران.

« إن إنجاب الجماعة الشيعية لفقيه أو فقهاء، علامة لا تخطئ في أمرين هامين يتصلان بدرجة وعي هذه الجماعة وبالظروف التاريخية التي

(١) الغروي محمد هادي في مقدمة رياض المسائل: ج١، ص٦٦.

(٢) كانت بلدة الكرك معقلا للشيعة منذ الفتح الإسلامي، بسبب وجود بعض القبائل الموالية للإمام علي عليه السلام مع الجيوش التي فتحت بلاد الشام ودخلت البقاع، أمثال الهمدانيين وخزاعة التي تفرع منها الحرافشة (!)، وحتى الأوزاعي الذي درس في الكرك يبدو متأثرا بطريقة الشيعة في الرواية عن أهل البيت. وانحصرت تراجم الأعلام الكركيين الذين عثرت عليهم في بطون الكتب خلال قرون عدة على الشيعة فقط، ولم أقع على ترجمة واحدة لعالم كركي من المذاهب الأربعة. وازدهرت مدرسة الكرك في القرنين العاشر والحادي عشر وبلغت درجة مرموقة من حيث عدد العلماء والطلاب، وأنواع العلوم التي تعطى وطرق التدريس، فقصدها طلاب المعرفة من مختلف الأقطار، وخصوصا من جبل عامل، أمثال الشهيد الثاني زين الدين الجبعي، الذي رحل إلى كرك نوح طلبا للأخذ من مشايخها، يرافقه الشيخ حسين بن عبد الصمد -والد البهاء- ومن العلماء الذين أموا الكرك وقرأوا على مشايخها علي بن هلال الجزائري..، راجع: جامع المقاصد، المحقق الكركي، ج١، تكملة مقدمة التحقيق: ص٢٨.

تجتازها: أولهما: أن هذه الجماعـة تدرك ذاتيتها الثقافية بل وخصوصيتها وتميزها. وثانيهما: أنها تملك الفرص لممارسة هذه الذاتية ضمن حد أدنى على الأقل من الشروط، منها: قسـط كاف من الحرية والشـعور بالأمن تستند ولا بد على وضع اجتماعي قوي ومطمئن.. »[1].

فكيـف إذا كان الفقيه على مسـتوى أن يكون شـيخ الإسـلام في البلاد الإيرانية؟.

* الشـهيد الثـاني زين الدين بن عـلي (٩١١- ٩٦٦هــ). وقد بدأ دراسـته في منطقتـه، ثـم في بلد الشـيخ علي عبـد العال الكركـي على يده، غير أنه لم يلبث أن تجول في أكثر من بلد طلبا للعلم ولاسـيما على يد علماء السـنة،فذهب إلى دمشـق ومصر ودرس على سـتة عشر مـن علمائها، غير أن النقطة التي تشـير إلى تحول اجتماعي هو سـفره إلى القسـطنطينية (سـنة ٩٥٢هـ) حيث أعجب بـه القاضي هناك قطب الدين الرومي بعدما ألف له رسالة فيها عشرة علوم من العلوم العقلية والفقه والتفسير، فعظم عنده مكانه وطلب منه أن يختار أي مدرسة يدرس فيها، فاختار المدرسة النورية في بعلبك، وأقام في بعلبك وكان يفتي على المذاهب الخمسة وعاشر أهلها مدة من الزمان بأفضل حال. ولأول مرة فيما نعهد يعهد بكرسي التدريس بهذا النحو في مدرسة خاضعة للحكم العثماني لعالم شيعي..

وعندما عاد إلى موطنه كان محط الاهتمام الاجتماعي، مما أثر فيما نعتقد على موقعية القاضي الرسـمي العثماني في صيـدا (معروف) وهذا ما نلاحظه في تقاضي الناس عند الشهيد، وانتشار فضله[2] وتأثيره وما سبب من انتشار

(١) التأسيس، ص ١١١.

(٢) بلغت مؤلفاته (٧٩ كتابا) منها: الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشـقية، ومسالك الأفهـام في شرح شرائـع الإسـلام ، روض الجنـان في شرح إرشـاد الأذهـان، تمهيد

التشـيع في تلـك المنطقـة (يلاحـظ من خلال شـكوى هذا القـاضي الكيدية عليه)، الأمر الذي جعل هذا الأخير يتآمر عليه حتى استشهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

* ومن أولئك الشـيخ البهائي. محمد بن حسـين بن عبد الصمد الحارثي الهمداني العاملي (٩٥٤-١٠٣٠هـ).

ينتمـي إلى الأسرة العربية المعروفـة (همدان) التي قال فيها الإمام أمـير المؤمنين (فلو كنت بوابا على باب جنـة..).. كان أبوه بمنزلة عالية من الشاه طهماسب الصفوي، حيث طلبه ليرشد الناس في إيران ويتولى القضاء.

كانت له اسفار كثيرة استغرقت حوالي ٣٠ سنة. إلى مصر وفلسطين ودمشق وحلب والحجاز..وله في كل منطقة مناظرات وتعليم أو تعلم، ذكر بعض ذلك في كتابه سـوانح سـفر الحجاز. فيما بعد اختص به الشاه عباس الصفوي، وقربه وكانت له علاقة مميزة مع معاصره السـيد محمد باقر الداماد.

كان متنـوع المواهب والملكات فهو فقيه مجيد وأديب بارع، وعالم في الرياضيـات والهندسـة والفلك.. نعـرف التنوع الـذي كان لديه من خـلال تنـوع تلامذتـه، وكتبه: فمنهـم الملا صـدرا الشـيرازي، ومنهم المجلسي الأول، ومنهم الفيض الكاشاني المفسر والمحدث.

ومن خلال كتبه التي بلغت ١٢٣ كتابا: في الفقه (٢٩). والتفسير والأصـول والرجال وعلوم العربيـة والرياضيات والفلك (٢٠ كتابا).

القواعـد الأصولية والعربية لتفريع الأحـكام الشرعية (١٠٠ قاعدة)، شرح الألفية والنفليـة (انطلاقـا من حديث للصـلاة أربعة آلاف حد)، منية المريـد في آداب المفيد والمستفيد.. وغيرها.

والحكمة والفلسفة.

القرن العاشر قرن التوتر:

يظهر أن القرن العاشر كان قرن التوتر على المستوى الإسلامي العام، وذلك على أثر تصاعد الصراع والتنافس بين الصفويين القوة الناشئة الطامحة، وبين العثمانيين القوة المسيطرة على أكثر مناطق العالم الإسلامي.

وقد كان المذهب والدين من الأسلحة التي استخدمها الطرفان بشكل سيء، فقد أثير التاريخ المذهبي والطائفي ليخدم السياسيين، واستجلبت النزاعات السابقة لتبرر الصراعات الحالية..

ومع الأسف فإن الصراع السياسي على النفوذ الذي كان ناشبا في غرب البلاد الإسلامية، كان يوجد تداعيات سيئة في بقية المناطق. وتعد أيام السلطان سليم العثماني من جهة، وأيام الشاه اسماعيل الصفوي ذروة هذا التوتر..

من المواطن التي أثر فيها بشكل واضح ذلك التوتر، لبنان حيث تعرض الشيعة هناك إلى مجازر أيام أحمد الجزار.. (لا نريد أن نقول أن تلك المجازر كانت بتفاصيلها سياسة عثمانية أو صفوية، فقد يأتي أشخاص في هذه الفترات لهم توجهات وأمزجة خاصة، فيستفيدون من الجو العام العدائي لكي يقوموا بالانتقام أو القتل.. بينما لو جاء هؤلاء في غير هذه الفترات لم يستطيعوا ذلك).

فمثلما حصل في العراق من قتل وتدمير لآثار أهل السنة أيام سيطرة الشاه اسماعيل على بغداد[1] كذلك حدث الأمر نفسه في صفوف

(١) العراق سياقات الوحدة والانقسام، بشير موسى نافع.

الشـيعة في لبنـان بعدما أصدر القاضي نـوح الحنفي فتـواه الجائرة بقتل الشيعة لكفرهم وأن من يشك في كفرهم فهو كافر[١]!!.

ويتحـدث الباحثون عن جرائم ارتكبت بتبريـر تلك الفتوى[٢]، تشتمل على القتل والأسر[٣]!.

---

(١) ذكرهـا السـيد عبـد الحسـين شرف الديـن في كتابـه الفصـول المهمـة في تأليـف الأمـة، ص١٤٣/ ١٤٤ فقـال: وجدنـاه (التكفير) في باب الردة والتعزيـر من الفتاوى الحامدية وتنقيحهـا بإمضاء الشـيخ نـوح الحنفي لاشـتهار هذيـن الكتابين ورجوع مـن بأيديهم منصـب الفتـوى في المملكة المحروسـة إليهـما. قال في جواب من سـأله عن السـبب في وجوب مقاتلة الشيعة وجواز قتلهم: إعلم أسعدك الله أن هؤلاء الكفرة والبغاة الفجرة جمعوا بين أصناف الكفر والبغي والعناد، وأنواع الفسق والزندقة والالحاد، ومن توقف في كفرهم وإلحادهم ووجوب قتالهم وجواز قتلهم فهو كافر مثلهم... إلى أن قال: فيجب قتل هؤلاء الأشرار الكفار تابوا أو لم يتوبوا، ثم حكم باسترقاق نسائهم وذراريهم.

(٢) ذكر ذلك السـيد حسـن الصـدر في كتابه تكملـة أمل الآمـل، ص ٤٣٧، في مواضع متعـددة منهـا: في ترجمة الشـيخ يونـس العاملي حيث قـال بأنه: مـن العلماء الاجلاء المرجوع إليهم في الرياسـة الدينية، قتله الأمير حيدر سـنة الف ومائة وثلاثين. وهذا الأمير حيدر هو والد الأمير ملحم صاحب وقعة أنصار الذي أسر من الشـيعة ألف وأربعمائة بفتوى الشيخ نوح وذلك سنة ١١٤٧.

(٣) أبـاد الشـيخ نوح الحامدي بفتواه ضد الشـيعة من مؤمني حلب وحدهـا أربعين ألفا أو يزيدون، وسبيت نساؤهم وهتكت أعراضهم ونهبت أموالهم وأخرج الباقون منهم من ديارهـم إلى نبل والنفاولة وأم العمـد و الدلبوز والفوعة وقراها، وهاجم الأمير ملحم بن الأمير حيدر بسـبب تلك الفتوى جبل عامل في سـنة ١١٤٧ هـ (يوم وقعة أنصار) فقتل وسلب ونهب كما فصله بعض زعماء العامليين وقضت حوادث الجزار وفتنه التي بـدأت في أواخـر القـرن الثاني عشر واسـتمرت إلى نيف ومئتين وألف عـلى معظم آثار العامليين ومؤلفاتهم، و كانت مكتبة الشـيخ علي خاتون الذي أسره الجزار تحتوي على ما يقرب من خمسـة آلاف كتاب مخطوط صارت كلها طعمة لأفران قرية عكا كما ذكره لي الحجة السيد حسن الصدر رحمه الله عن بعض المشايخ المعمرين من العامليين ممن وقف عـلى بعـض الآثار المتلوفة، كما أن بعض المكتبات دفنت تحـت الدور التي هدمها الغزاة الظالمون هكذا سـمعت من بعض العلماء المطلعين مـن آل محفوظ، وبهذه الجرائم قضي عـلى الآثار العلميـة ونسي ذكر كثير من العلماء والمؤلفين، الشـيخ آقا بزرك الطهراني في مقدمة كتاب الصراط المستقيم: ج٢ ، ص ١٤.

أواسط القرن الحادي عشر ودولة في طرابلس:

سيطر آل حمادة من الشيعة على إمارة طرابلس حوالي سنة (١٠٦٠) واستمر إلى قرنين من الزمان تقريبا..

وبقيت العلاقات بين الشيعة وبين العثمانيين في مد وجزر. فقد كان العثمانيون (يكرهون الشيعة بنوع من الرفض الغريزي المادي الذي كانوا يواجهون به أولئك الذين يعتبرونهم تهديدا للمجتمع وذلك لأنهم ربطوا في البداية بين الشيعة و(القزلباش) أي الصوفيين ذوي الرؤوس الحمراء، وهم من الغلاة الذين أوصلوا الصفويين إلى الحكم، بالإضافة إلى انهم كانوا ممن يظن بهم وهم في قلب السلطنة التعاون لا بل العمالة للصفويين وهم جيران العثمانيين واعداؤهم، ولذلك فإن الشيعة بالرغم من أنهم لم يكونوا مضطهدين باستمرار كانوا يشعرون بأنهم هدف لموقف عثماني كان يتراوح بين التسامح والاضطهاد ويتأقلم في أغلب الأحيان في الوقائع المحلية)[١]، لكن المعدل العام لها كان هو العداء الأمر الذي حدا ببعض العوائل إلى إعلان تسننها ظاهرا[٢].

الفرنسيون والشيعة في العصر الحديث:

مع ضعف الدولة العثمانية، وقيام الحرب العالمية الأولى (١٩١٤هـ) انتهت السيطرة العثمانية على لبنان، واحتلت فرنسا لبنان. مع مجيء الفرنسيين كان الشيعة يشكلون أكثرية سكانية بالنسبة للجميع[٣] سواء

(١) صابرينا ميرفان: حركة الإصلاح الشيعي، ص٢٧.
(٢) المصدر السابق: ص ٢٨.
(٣) راجع الموسوعة العربية العالمية: ج٢١، ص٧١.

كانوا مسيحيين، أو مسلمين سنة، غير أن الفرنسيين الذين حاولوا أن يغيروا من التركيبة السكانية من خلال استقدام الموارنة المسيحيين من سوريا ولم يفلحوا. في النتيجة قاموا بتقسيم الوظائف على اساس أن المسيحيين والمسلمين متناصفون (مع تغليب جانب المسيحيين ٧ إلى ٦)، وأن الشيعة نصف المسلمين، يعني بالنتيجة سيحصلون على ربع الامتيازات في المواقع الكبرى في الدولة.. وبالرغم من كون ذلك مجحفا تماما إلا أن ما حصل عليه الشيعة بشكل واقعي لا يرقى حتى إلى نسبة الربع تلك!! فقد ذكر بعض الباحثين أن الوظائف الأساسية في الأمن والجيش، والوزارات السيادية ليس فيها للشيعة نصيب مهم.

الشيعة والنهوض الجديد:

كان للكثير من علماء لبنان دور مهم في إنهاض أتباعهم من شيعة أهل البيت عليهم السلام، غير أن الدور الأكبر يقترن بالسيد موسى الصدر[1] الذي خلف السيد عبد الحسين شرف الدين وجاء إلى جنوب لبنان، منطقة صور، للقيام بشؤون الشيعة بطلب من أهلها.

وقد عمل على أكثر من مستوى: فقد ركز على التخصص والتعليم ولا سيما المهني منه في صفوف أبناء الطائفة مجيء السيد موسى الصدر إلى لبنان غير الوضع العام للشيعة. كما استطاع استرجاع الطاقات الشابة الشيعية التي كانت تبحث عن انتماء في الأحزاب اليسارية والقومية عندما صنع إطارا دينيا شعبيا في البداية يتمثل في حركة المحرومين، ثم في إطار حركي تنظيمي باسم أفواج المقاومة اللبنانية تحول فيما بعد إلى

(١) أصول عائلة الصدر من شرف الدين، وهم لبنانيون وكان أحد أجداد السيد موسى ممن قتلهم أحمد الجزار.

حركة مسلحة واجهت الإسرائيليين بشجاعة.

وفي إطار تنظيم وضع الطائفة الشيعية في لبنان والتي كانت أكثر الطوائف عددا، وأقلها تنظيما ومؤسسات توجه لإنشاء (المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى) بغرض رفع الظلم والغبن الممارس تجاه الطائفة على أكثر من مستوى.. وبالرغم من معارضة كثيرين من خارج الطائفة بدعوى أن هذا يكرس الطائفية (مع العلم أنه تم تنظيم حال الطائفة السنية منذ عام ١٩٥٥، والطائفة الدرزية عام ١٩٦٢) بل أحيانا من داخل الطائفة.. لكنه مضى في مشروعه الذي اصبح واقعا ملموسا عام١٩٦٧م[1].

وقد عمل في غمرة اهتمامه بإنهاض الشيعة على تعزيز التفاهم المسيحي الإسلامي، والإسلامي الإسلامي من خلال خطوات كثيرة.. إلى أن تم تغييبه واختطافه في أثناء سفره إلى ليبيا عام ١٩٧٨ وكان ذلك بعد نشوب الحرب الأهلية اللبنانية.

كان الدور الذي قام به السيد موسى الصدر يتمثل في إنهاض الشيعة كطائفة ذات دور مؤثر وتنظيم أمورها وقضاياها، والتهيئة لممارستها لذلك الدور في المستقبل..

وقد آتت أعماله تلك نتائجها الطيبة عندما برز إلى ميدان المقاومة حزب الله واستطاع ولأول مرة في تاريخ العرب والمسلمين أن يواجه الإسرائيليين في موقعتين مؤثرتين انتهتا إلى انتصاره عليهم، في سنة ٢٠٠٠م وفي سنة ٢٠٠٦م.

وبهذين الانتصارين صار الشيعة في لبنان أصحاب الدور الأول

(١) للتفصيل عن أعماله يراجع صفحة انترنت: www.imam-moussa.com

بحيث لا يستطيع أحد تجاوز حجمهم وأهميتهم، وهم يسيرون في الاتجاه الذي يحقق الإنصاف في أخذ حقوقهم، بالرغم من أنهم لا يتحركون في خط طائفي.. ولا نحتاج إلى الكتابة عنهم هنا فإنهم يكتبون على الأرض بأعمالهم الايجابية في المقاومة والبناء ما يكفي لقراءته.

تاريخ الشيعة في ايران

على العكس مما يبثه مخالفو التشيع من أن منشأ التشيع فارسي، على أساس تأثرهم الفرس بمصاهرة الإمام الحسين لبنت ملكهم يزدجرد وكون الإمام زين العابدين علي بن الحسين ابنها.. أو كما قال بعضهم أن الفرس الذين هزموا أمام المسلمين، فكروا في طريقة أخرى للكيد للإسلام فكان أن قاموا بالانتماء إلى التشيع وتعضيده بل تأسيسه!.

على العكس من ذلك تشير الدراسات التاريخية المحققة إلى أن مراحل انتشار التشيع في إيران، وهي مراحل متدرجة بدأت بفئة محدودة، وتطورت وازداد عدد المنتمين إلى هذا المذهب على مدى عشرة قرون إلى أن أصبح المذهب الرسمي والشعبي في أوائل القرن العاشر الهجري.. وكان في كل مرحلة من هذه المراحل يبدو أثر العرب في نشر المذهب في إيران واضحا، حتى ليمكن القول أن التشيع هو هدية العرب إلى الايرانيين!

يمكن تقسيم تاريخ الشيعة في إيران إلى خمس مراحل[1]:

- **المرحلة الأولى**: بدايات تشيع الموالي في العراق، تشيعا سياسيا بحسب التعبير.

(١) استفدنا هنا من الدراسة القيمة التي أعدها الباحث رسول جعفريان (الشيعة في إيران).

- **الثانية**: تشيع بعض المناطق مثل قم على أثر هجرة العرب إليها من أيام الأمويين بعد منتصف القرن الأول.

- **الثالثة**: مرحلة قيام الدولة البويهية في منتصف القرن الرابع.

- **الرابعة**: التزام بعض سلاطين المغول بالتشيع وإعلانه المذهب الرسمي في إيران في القرن الثامن.

- **الخامسة**: قيام الدولة الصفوية في منتصف القرن العاشر.

المرحلة الأولى: الموالي والتشيع السياسي:

تطلق كلمة المولى في اللغة والتراث العربي والإسلامي ويراد بها معان متعددة:

- فقد يراد منها معنى السيد والمالك والنصير مثل قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾[1].

- وقد يراد منها معنى العبد، فيقال هو مولى فلان أي عبده، ولا سيما إذا أعتق، فيكون ولاؤه لسيده.

- وقد يراد منها معنى المسلم غير العربي.. ولذلك فإنهم يذكرون في تعريفهم هذه الكلمة فيقال مولى بني أسد.. وإلى هذا المعنى أشار أبو الأسود الدؤلي في ما نقل عنه وقد سمع اللحن في كلام الموالي: «هؤلاء الموالي قد رغبوا في الإسلام فدخلوا فيه، فصاروا لنا إخوة، فلو علمناهم الكلام)..وهذا هو المعنى المراد من استعمالنا الكلمة في هذه السطور.

وفي البداية لا بد أن نشير إلى أن اعتزاز العرب بجنسهم ولغتهم

(١) سورة محمد: ١١.

كان كبيرا جدا، بحيث يرون أنفسهم أفضل من غيرهم بغض النظر عن أي مقايسة أخرى! ولهذا لم يستطع الكثير منهم أن يتقبل كونه مساويا للأعجمي أو التركي أو الأسود لونا-.. وكان التركيز على التفاخر بالأنساب من الميزات المتأصلة لدى العرب في تلك الفترات، بل وإلى زماننا في بعض المناطق!

وبالرغم من تأكيد القرآن على أنه لا محل للافتخار بالأنساب ما دام الأصل ينتهي إلى منبع واحد ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[1]، وقيام النبي ﷺ بتأكيد هذه الحقيقة قولا وفعلا، مثل خطبته في وسط أيام التشريق: «يا أيها الناس الا ان ربكم واحد وان أباكم واحد الا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي ولا لاحمر على أسود ولا أسود على أحمر الا بالتقوى»[2] وتوجيهه إلى التزاوج بين العنصرين بل أمره في أحيان كثيرة بذلك، كتزويجه الذلفاء بنت زياد بن لبيد وهو من أشراف بني بياضة، لجويبر الذي كان من (فقراء السودان) كما ذكروا.. وتزويجه زينب بنت جحش الأسدية لزيد بن حارثة (مولاه). وتعليل النبي ذلك بأن الله أذهب نخوة الجاهلية وتفاخرها بالعشائر، وإنهم اليوم لا فضل لعربيهم على عجميهم..

بالرغم من ذلك إلا أنه لم يحصل تغيير كلي في النفوس والثقافة، بل بقيت هذه الحالة بدرجة أو أخرى لدى العرب.. ولهذا فقد كان الموالي الذين دخلوا الإسلام على اثر الفتوحات، محلا لتمييز مارسه بعض الحاكمين ضدهم، وسوء الظن في حقهم، فمُيز بينهم في العطاء

(١) سورة الحجرات: ١٣.

(٢) مسند احمد، الإمام احمد بن حنبل: ج ٥، ص ٤١١.

في عهـد الخليفة الثاني بناء على اجتهـاد منه!- فيما رفض الإمام علي هذا التمييز قائلا: إن الله لم يجعل لبني اسماعيل فضلا على بني اسحاق!.

وتصاعـد هذا الأمر أيام الأمويين حتى صار بمثابة القانون: فقد كان ممنوعا أن يتزوج الموالي من العرب بينما يصح العكس -مع غضاضة ولوم كما صنع عبد الملك مع الإمام علي بن الحسـين زين العابدين-[1]! وعندمـا تزوج أحد الموالي امرأة من بني سـليم ركب أحدهم إلى المدينة وشـكى ذلك إلى أميرها ففرق بين المولى وبين زوجته وأمر بضربه مئتي سوط وحلق رأسه ولحيته وحاجبه.. كيف يجرأ على ذلك؟وكان عليهم أن يكونوا في الصفوف الأولى من الحرب! وليس لهم أن يؤموا الصلاة! بل ولا أن يقفوا في الصف الأول من الجماعة! وكانوا يرون أن الموالي إنما خلقـوا لأعمال من مثل كسـح الطرق وتنظيفهـا، وخياطة الثياب ورقع الأحذية! بل وقالوا: إن أبغض الكلام إلى الله الفارسية، وإنه إذا غضب الله أنزل الوحي بالفارسية وإذا رضي أنزله بالعربية! وهكذا..

هـذه المواقـف غـير الصحيحـة، جعلت المـوالي يـرون في الإمام علي تمثيلا تاما للإسـلام، وهـم يسـمعون كلامه، ويرون معاملته الطيبة للمـوالي، وفي طليعتهم سـلمان الفارسي.غيرأن هذا كان أشـبه بالانتماء

(١) أمـا بعـد: فقد بلغنـي تزويجك مولاتك، وقـد علمت أنـه كان في أكفائك من قريش من تمجد به في الصهر وتسـتنجبه من الولد فلا لنفسـك نظرت ولا على ولدك أبقيت والسـلام... فـرد عليه الإمام: أما بعـد: فقد بلغني كتابك تعنفنـي بتزويجي مولاتي، وتزعـم أنه كان في نسـاء قريش من أمجد به في الصهر واسـتنجبه في الولد، وأنه ليس فـوق رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم مرتقى في مجد ولا مسـتزاد في كرم، وإنـما كانت ملك يميني خرجت مني بأمر إرادة الله عز وجل التمسـت فيه ثوابه ثم ارتجعتها على سـنته ومن كان زكيا في دينه فليس يخل به شئ من أمره، وقد رفع الله بالإسلام الخسيسة، وأتم به النقيصة، واذهب اللوم فلا لوم على امرئ مسلم إنما اللوم لوم الجاهلية.. عن النظام السياسي في الإسلام، باقر شريف القرشي، ص: ٢٠٧.

السياسي والاجتماعي منه بالانتماء العقدي والالتزام الفقهي.

المرحلة الثانية: هجرة أشعرية:

يبدأ أول تعرف على التشيع في إيران بالمعنى العقدي، من خلال أحفاد أحد صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وخلص أصحاب أمير المؤمنين وهو السائب بن مالك الأشعري ومن المهم أن نتتبع شيئا من حركة هذا الرجل حتى هجرة أحفاده إلى قم.

نلتقي به وقد قدم إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فأسلم على يده وكان له معه صحبة. حتى إذا قلبنا صفحات التاريخ وجدنا السائب الذي هاجر إلى الكوفة وسكنها يكون له في أيام أمير المؤمنين عليه السلام دور في نصيحة أبي موسى الأشعري الذي كان (وهو والد زوجته) واليا على الكوفة قبل اتخاذها عاصمة للإمام بأن يستجيب لرسالة الإمام في تعبئة أهل الكوفة لقتال أهل الجمل حيث كتب له: إني وجهت هاشم بن عتبة (المرقال) لينهض من قِبلك من المسلمين إلي فأشخص الناس فاني لم أولك الذي أنت به إلا لتكون من أعواني على الحق! فدعا أبو موسى السائب بن مالك الأشعري فقال له: ما ترى؟ قال: أرى أن تتبع ما كتب به إليك! قال: لكني لا أرى ذلك! فكتب هاشم إلى علي: إني قد قدمت على رجل غال مشاق ظاهر الغل والشنآن وبعث بالكتاب مع المحل بن خليفة الطائي[1].

وإذا كنا لا نعثر على اثر له في قضية الإمام الحسين في كربلاء، ولا نعلم عن سبب ذلك، فإننا نجد دورا واضحا جدا له في حركة المختار الثقفي، فقد كان يجمع له الأنصار، ويبايع له الناس[2] والمختار لا يزال

(١) تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٥١٢

(٢) ولما نزل المختار داره عند خروجه من السجن اختلف إليه الشيعة واجتمعت عليه

في سـجن الأمويين، فعندمـا تحرك ابن مطيع العدوي وسـيطر على الكوفة مبعدا الأمويين لحساب عبد الله بن الزبير وخطب في الناس كان الشخص الـذي واجهه هو السـائب؛ كـما نقله الطـبري: فقد صعد المنـبر فحمد الله وأثنـى عليـه وقال أمـا بعد فإن أمـير المؤمنين عبد الله بن الزبـير بعثني على مصركـم وثغوركم وأمـرني بجباية فيئكم وأن لا أحمـل فضل فيئكم عنكم إلا برضى منكم ووصية عمر بن الخطاب التي أوصى بها عند وفاته وبسيرة عثمان ابن عفان التي سـار بها في المسلمين فاتقوا الله واستقيموا ولا تختلفوا وخذوا على أيدي سفهائكم وإلا تفعلوا فلوموا أنفسكم ولا تلوموني فوالله لأوقعن بالسقيم العاصي ولأقيمن درأ الأصعر المرتاب!!.

فقـام إليه السـائب بن مالك الأشـعري فقال: أما أمـر ابن الزبير إياك أن لا تحمل فضل فيئنا عنا إلا برضانا فإنا نشـهدك أنا لا نرضى أن تحمل فضل فيئنا عنا وأن لا يقسم إلا فينا وأن لا يسار فينا إلا بسيرة علي بـن أبي طالب التي سـار بها في بلادنا هـذه حتى هلك رحمة الله عليه ولا حاجة لنا في سيرة عثمان في فيئنا ولا في أنفسنا فإنها إنما كانت أثرة وهوى ولا في سـيرة عمر بن الخطاب في فيئنا وإن كانت أهون السـيرتين علينا ضرا وقد كان لا يألو الناس خيرا.

فقال يزيد بن أنس: صدق السـائب بـن مالك وبر رأينا مثل رأيه وقولنا مثل قوله!.

واتفق رأيها على الرضا به وكان يبايع له الناس وهو في السـجن خمسـة نفر السـائب بن مالك الأشـعري ويزيد بن أنس وأحمر بن شـميط ورفاعة بن شداد الفتياني وعبد الله بن شـداد الجشـمي قال فلم تزل أصحابه يكثرون وأمره يقوى ويشتد حتى عزل ابن الزبير عبد الله بن يزيد وإبراهيم بن محمد بن طلحة وبعث عبد الله بن مطيع على عملها إلى الكوفة، تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٤٨٨-٤٨٩.

فقال ابن مطيع: نسير فيكم بكل سيرة أحببتموها وهويتموها[1]!.

وشارك في حركة المختار بفعالية، فإننا نراه أحد القادة العسكريين في مواجهة ابن الأشعث، وعندما خرج المختار خارج الكوفة جعله واليا عليها حتى عاد. وشارك مع المختار في كل تفاصيل المعركة في الكوفة إلى أن استشهد مع المختار..

لما انكسرت حركة المختار كان الأشعريون في مواجهة عدوين في وقت واحد، فإن الزبيريين الذين سيطروا على الكوفة لن يغفروا لآل السائب موقف أبيهم، وهكذا الأمويون فإنهم لما هزموا الزبيريين وولوا الحجاج بن يوسف الثقفي على الكوفة سنة ٧٥ هـ قام هذا بقتل محمد (ابن السائب بن مالك صاحب المختار الثقفي المقرب منه) ونادى أن برئت الذمة من آل السائب والأشعريين.

على أثر ذلك حدثت هجرة من قبل آل السائب بل عموم الأشعريين إلى قم، خصوصا بعدما جاءت نتائج ثورة عبد الرحمن بن الأشعث ضد الحجاج معكوسة، فهاجر -هربا منه-.. أبناء سعد بن مالك بن عامر الأشعري الأربعة إلى قم والتحقت بهم قبائلهم وأقاربهم حتى غلبوا على قم، في حوالي سنة ٩٤ هـ.

وتكاثر عددهم في قم حتى أنه ذكر في تاريخ قم أن عدد الأشعريين بلغ قريبا من ستة آلاف في أواخر القرن الرابع)، وفي نفس الوقت استمر تواصل الأشعريين العرب مع الأئمة عليهم السلام، بدءا بالإمام الصادق والإمام الرضا وأبنائه عليهم السلام، فقد ذكروا أن عدد الأشعريين

(١) تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٤٨٩-٤٩٠.

مـن الـرواة والعلماء والمحدثـين (٣٩) يبلـغ راويا ومحدثا وشـيخا، من بينهم (١٦) يروون عن الائمة مباشرة[1]، كما يروي عنهم كبار المحدثين كالكليني[2].

وبمقدار ما تكاثر عددهم وكانت لهم الريادة العلمية في قم، فقد تبـع ذلك أيضا الزعامة الاجتماعية والسياسـية، حيث كان بعضهم ممن (يلقى السلطان) أو أنه (وجه من وجوه الطائفة).

يمكـن تبين الأثـر العلمي الواضح والزعامـة الاجتماعية البارزة للأشـعريين مـن خلال ما ذكر في ترجمة بعضهـم، مثل أحمد بن محمد بن عيسـى الأشـعري، فإننا سـننقل النـص بكامله ليس لغـرض التعريف بشـخصه وإنما لأنه من خلال اسـتعراض المترجم لشخصيته يتبين سعة تأثـير الأشـعريين في قـم. قال السـيد الخرسـان في تعليقته عـلى تهذيب الأحكام:ج١٠، شرح: ص ٤٢-٤٤:

هـو أحمـد بن محمد بن عيسـى بن عبد الله بن سـعد بـن مالك بن الأحوص بن السـائب بن مالك بن عامر الأشـعري من بني ذخران بن عوف بن الجماهر بن الأشعر يكنى أبا جعفر، من أهل قم وكان السائب بـن مالـك وفـد إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأسـلم وهاجـر إلى الكوفـة وأقام بها، وأول مـن سـكن قم من آبائه سـعد بن مالك بن الأحـوص وذلك بعد الفتـح الإسـلامي، وهو من بيـت جلهم من الاعلام وشـيوخ الحديث فأبوه محمد وجده عيسى وعمران عمه وكذا إدريس بن عبد الله وأولاد أعمامه زكريا بن آدم وزكريا بن إدريس وغيرهم من أجلة رواة الحديث

(١) جعفريان: رسول في (تاريخ تشيع در ايران) ١٨٢

(٢) كأبي عـلي الأشـعري شـيخ الكليني الذي ورد اسـمه في ٩٢٩ رواية (كما عن السـيد الخوئي في المعجم).

ولهـم الذكـر الجميـل في معاجـم الرجال. قـال عنه النجـاشي في رجاله ص ٦٠: «وأبـو جعفر رحمه الله شـيخ القميين ووجههـم وفقيههم غير مدافع، وكان أيضا الرئيس الذي يلقى السلطان. ولقي الرضا عليه السلام... ولقي أبا جعفر الثاني عليه السلام وأبا الحسن العسكري عليه السلام. وقال الشيخ الطوسي في الفهرسـت ص ٤٩ » وأبو جعفر شيخ قم ووجهها وفقيهها غير مدافع، وكان أيضا الرئيس الذي يلقى السلطان بها ولقي أبا الحسن الرضـا عليه السلام. وقال عنـه في الرجال ص ٣٦٦ في بـاب الجواد والهادي عليهما السلام أيضا. وقال ابن حجر في لسان الميزان ص ٢٦٠ « . العلامة أبو جعفر الأشـعري القمي شـيخ الرافضة بقم له تصانيف وشهرة كان في حدود الثلاثمائة » وذكره ابن النديم وابن شهرآشوب وإسماعيل باشا وغيرهم، وذكر كل واحد جملة من كتبه. وقال الشـيخ الصدوق في أول كتابه كمال الدين ص٣ ما هذا لفظه، وكان احمد ابن محمد بن عيسـى في فضله وجلالتـه يروى عن أبي طالب عبد الله بن الصلت..ولا أدل على مكانته في قم ونفوذ كلمته من ابعاده أحمد بن محمد بن خالد البرقي عن قم لما شاع عن البرقي من أنه يعتمد المراسيل ويكثر الرواية عن الضعفاء فطعـن عليه القميـون حتى ابعده أحمـد بن محمد بن عيسـى غير أنه فيما بعـد مشـى في جنازته حافيـا حاسرا ليبرئ نفسـه عما قذفه بـه. له كتب عديـدة ذكر ابن النديم منها: كتاب الطب الكبير وكتاب الطب الصغير وكتاب المكاسـب، وذكر الشيخ في الفهرست والنجاشي في رجاله منها كتاب التوحيد وكتاب فضل النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكتاب المتعة وكتاب الناسـخ والمنسـوخ وكتـاب الفوائد وكان غير مبوب فبوبـه داود بن كورة. وزاد النجاشي له كتاب الأظلة كتاب المنسوخ كتاب فضائل العرب، قال ابن نوح: ورأيت له عند الدبيلي كتابا في الحج (انتهى).

ويشير إلى حجم الوجود الشيعي ما نقله المؤرخون من أن المأمون عندما أشخص الإمام علي بن موسى الرضا من المدينة إلى خراسان، أمر قائد القافلة الرجاء بن الضحاك أن لا يمر على طريق الكوفة وقم، وإنما يأخذ طريق البصرة فالأهواز ففارس فخراسان. وعندما توعكت السيدة فاطمة بنت موسى بن جعفر في طريقها إلى خراسان وكانت في ساوة اختارت النزول في قم في دار موسى بن خزرج الأشعري، مع بعدها بعشرة فراسخ!.

تحولت قم إذن إلى منطقة شيعية خالصة، وإلى مركز علمي متميز، ثم إلى ملاذ آمن لكل من أراد النجاة من بطش العباسيين، فأثرت على المناطق المجاورة بالتدريج، فصارت (آوة، وكاشان، وفيما بعد الري من المناطق الشيعية). و هذا يعد من التطور الطبيعي، في تأثر المجتمعات، أي لم يكن هناك حركة سياسية أو حالة عسكرية تحمي هذا الوجود، وإنما هو تأثر اجتماعي، وحراك فكري خالص.

المرحلة الثالثة: مجي البويهيين: ٣٢٠-٤٤٧هـ

الوالد أبو شجاع بويه، كان صياد سمك، ربى أبناءه الثلاثة (علي والحسن، وأحمد) تربية حازمة، ولذا فعندما دخلوا في خدمة الدولة الزيارية (مرداويج) واستقلوا بمنطقة صغيرة، أداروها إدارة جيدة ثم بدؤوا يتوسعون فسيطروا على اصفهان وكرمان وأخيرا دخلوا إلى بغداد وأبقوا الخليفة العباسي لكنهم كانوا الحكام الفعليين.. وكان شيعة إمامية خلافا لإدعاء كونهم زيدية، وكان لوجودهم على رأس السلطة دور مهم في أن ينطلق علماء الشيعة بحرية في نشر علوم المذهب، فكان الشيخ المفيد في بغداد، والسيد المرتضى، وقبلهما والد الصدوق وابنه

في قـم والري، وأشـاعوا أمـور المذهب وأظهروا شـعائره مثـل الغدير وعاشوراء والأذان..

وفي هذه الفترة توسـع التشيع في كثير من بلاد إيران، ولكنه لم يعلن مذهبـا رسـميا من قبل الدولة البويهية، ربما يكـون ذلك من أجل حالة من الانفتاح كانت لديهم على بقية المذاهب التي بقيت تمارس نشاطها المعتاد من غير تضييق في أكثر الأحوال.. إلى أن سقطت دولتهم على يد السلاجقة.

المرحلة الرابعة: بدايات القرن الثامن، الشيعة في زمان المغول:

أسـقط المغول الخلافة العباسـية، وسـيطروا على العراق وغيرها من البلاد المسلمة.. وبعد أن زاح دخان المعارك، تأثر كثير منهم بالفكر الإسـلامي والعقائد الدينية العامة، غـير أن قضية المذاهب كانت قضية سـاخنة، فبالرغـم مـن أن بلاد المسـلمين كانـت قد تعرضـت إلى تلك المشـاكل إلا أن الصراعات المذهبية كانت على أشدها.. وكان كل فريق يريد أن يستقطب شخصيات المغول لمذهبه ويبعدهم عن المذهب الآخر لكي يستقوي المذهب بانتمائهم إليه..

يقـال: إن بعض السـلاطين المغـول مثل غازان خـان اتخذ موقفا متوسـطا بـين المذاهـب فـكان يتعاطف مـع الجميع، ويسـمح للجميع بممارسة نشاطه..وإن كان يميل إلى التشيع..

إلا إن اختيـار السـلطان أولجايتو محمد خدابنده التشـيع صراحة وإعلانه اياه على انه المذهب الرسمي، وتغيير الخطبة لكي تصطبغ بصبغة شيعية، والتظاهر بالشعائر الشيعية، شكل دفعة قوية لانتشار المذهب.

فإنهم يذكرون في تشيعه عدة حوادث:

منهـا أنه مل مـن النزاع الحاصل بـين الشـافعية والاحناف فكل منهم يشـوه له مذهب الآخر، فاقترح عليه سـيد تاج الدين الأوجي أن ينظر في التشيع[1].

ومنهـا: أنه غاضـب زوجته فطلقها ثلاثـا في مجلس واحد، وكان يفتش عن مخرج لا ينتهي إلى أن تنكح زوجا غيره[2].

---

(١) ذكر ذلك الشـيخ فارس الحسـون في مقدمته لكتاب إرشـاد الأذهان للعلامة الحلي، فبعد أن بين جانبا من الحيرة التي حصلت لأمراء المغول على اثر الاختلاف الحاصل بـين الشـافعية والأحناف قال:.. فلـما رأى الأمير طرمطار تحيره في أمـره قال له: إن السـلطان غازان خان كان أعقل الناس وأكملهم فمال إلى مذهب التشـيع ولا بد أن يختاره السـلطان، فقـال: ما مذهب الشـيعة؟ قال الأمير طرمطار: المذهب المشـهور بالرفض، فصاح عليه السلام: يا شـقي تريد أن تجعلني رافضيا! فأقبل الأمير يزين مذهب الشيعة ويذكر محاسنه له، فمال السلطان إلى التشيع. وفي هذه الأيام ورد على السلطان السـيد تاج الديـن الآوي الإمامي مع جماعة من الشـيعة، فشرعـوا في المناظرات مع القـاضي نظـام الدين في محضر السـلطان في مجالس كثـيرة، وكانـت مناظرتهم بمثابة المقدمة للمناظرة الكبيرة التي وقعت بعد هذا بين علماء السنة والعلامة الحلي بمحضر السـلطان. وبعد مناظرة السـيد الآوي عزم السلطان السفر إلى بغداد ثم الذهاب إلى زيارة قبر أمير المؤمنين عليه السلام، وعند القبر رأى مناما يدل على حقية مذهب الإمامية، فعرض السلطان ما رآه في المنام على الأمراء، فحرضه من كان منهم في مذهب الشيعة على اعتناق هذا المذهب الحق، فصدر الأمر بإحضار أئمة الشيعة، فطلبوا جمال الدين العلامة وولده فخر المحققين، وكان مع العلامة من تأليفاته كتاب نهج الحق وكتاب منهـاج الكرامـة، فأهداهما إلى السـلطان، وصـار مـوردا للألطاف والمراحـم. فأمر السـلطان قاضي القضاة نظام الدين عبد الملك – وهو أفضل علماء العامة، أن يناظر آية الله العلامة، وهيأ مجلسا عظيما مشحونا بالعلماء والفضلاء من العامة، منهم المولى قطـب الدين الشـيرازي وعمر الكاتبـي القزويني وأحمد بن محمد الكيشي والمتسـيد ركـن الديـن الموصلي. فناظرهـم العلامة وأثبـت عليهم بالبراهـين العقلية والحجج النقلية بطلان مذاهبهم العامية وحقيقة مذهب الإمامية.

(٢) ذكـره السـيد الأمـين في الأعيـان: ج٥، ص٣٩٦: ناقـلا إيـاه عن الشـيخ محمد تقي المجلسـي فقال: ذكـر التقي المجلسي في شرح الفقه ان السـلطان الجايتو محمد المغولي الملقـب بشـاه خربنـدا غضب على احـدى زوجاته فقـال لها أنت طالـق ثلاثا ثم ندم

فـكان أن اسـتقدم العلامة الحلي، الذي ناظر علـماء بقية المذاهب وفاقهم، فأعلن السلطان تشيعه على أثر ذلك.

وبعـد عـصر السـلطان خدابنده، جـاءت الدولـة السربدارية في خراسـان، وهـي دولة شـيعية استمرت قرابـة نصف قرن مـن الزمان (٧٣٨ هـ، ٧٨٣ هـ)، وقد أظهرت شـعارات التشـيع وسـعت في نشره ولا سـيما أيام حاكمها (علي بن مؤيد) والذي أرسـل إلى الشـيخ شمس الدين محمد بن مكي العاملي المعروف بالشهيد الأول، أن يتفضل عليهم بالمجيء إلى خراسان، فإنهم يخافون « غضب الله على هذه البلاد، لفقدان

فسـال العلماء فقالـوا لا بد من المحلل فقال لكم في كل مسـألة أقوال فهل يوجد هنا اختلاف؟ فقالوا لا، فقال أحد وزرائه: في الحلة عالم يفتي ببطلان هذا الطلاق، فقال العلماء ان مذهبه باطل ولا عقل له ولا لأصحابه ولا يليق بالملك ان يبعث إلى مثله، فقـال الملك أمهلوا حتى يحضر ونرى كلامه فبعـث فاحضر العلامة الحلي فلما حضر جمـع له الملك جميـع علماء المذاهب فلما دخل على الملك اخذ نعله بيده ودخل وسـلم وجلس إلى جانب الملك فقالوا للملك ألم نقل لك انهم ضعفاء العقول فقال اسـألوه عن كل ما فعل فقالوا لماذا لم تخضع للملك بهيئة الركوع فقال لان رسـول الله ﷺ لم يكن يركع له أحد وكان يسـلم عليه وقال الله تعالى (فإذا دخلتم بيوتا فسـلموا على أنفسـكم تحية مـن عند الله مباركـة) ولا يجوز الركوع والسـجود لغـير الله قالوا فلم جلست بجنب الملك قال لأنه لم يكن مكان خال غيره قالوا فلم اخذت نعليك بيدك وهـو منـاف للأدب قال خفت ان يسرقه بعض اهل المذاهب كما سرقوا نعل رسـول الله ﷺ، فقالوا ان اهل المذاهب لم يكونوا في عهد رسول الله ﷺ بل ولدوا بعد المائـة فما فوق من وفاته. كل هذا والترجمـان يترجم للملك كلما يقوله العلامة، فقال للملك: قد سمعت اعترافهم هذا فمن أين حصروا الاجتهاد فيهم ولم يجوزوا الاخذ مـن غيرهم ولو فـرض انه اعلم؟! فقال الملك ألم يكن أحد من أصحاب المذاهب في زمـن النبي ﷺ ولا الصحابة قالوا لا، قـال العلامة: ونحن نأخذ مذهبنا عن علي بن أبي طالب نفس رسول الله ﷺ وأخيه وابن عمه ووصيه وعن أولاده من بعده. فسـأله عـن الطلاق، فقال باطل لعدم وجود الشـهود العدول. وجـرى البحث بينه وبين العلماء حتى ألزمهم جميعا فتشـيع الملك وخطب بأسـماء الأئمة الاثني عشر في جميع بلاده وامر فضربت السكة بأسمائهم وامر بكتابتها على المساجد والمشاهد.

الرشـد، وعدم الإرشـاد والمأمول مـن إنعامه العـام، وإكرامـه التام أن يتفضل علينا، ويتوجه إلينا متوكلا على الله القدير»[1] كما جاء في رسـالة حاكم خراسان علي بن مؤيد.

وحيث لم يسـتطع الشيخ محمد بن مكي من الذهاب إلى خراسان ليكون مرشـد تلـك البـلاد، نظرا لوضعـه الخاص في دمشـق، وحاجة الوضع العام إليه، فقد استعاض عن ذلك بكتابة دورة مختصرة في الفقه سميت بـ (اللمعة الدمشقية)وإرسالها إليهم.

المرحلـة الخامسـة: الدولـة الصفويـة بدايـات القـرن العاشر إلى منتصف القرن الثاني عشر (٩٠٦- ١١٤٨هـ):

صفـي الدين كان من الصوفية السـنة فتشـيع أبنـاؤه، وبدؤوا في السـيطرة على تبريز ثم بالتدريج سـيطر الشاه اسماعيل وهو أهم الحكام الصفويـين على كل ايران، ثم تطلعوا إلى السـيطرة على العراق، ودخلوا في صراع عنيـف مع العثمانيين، وقـد اتخذ هذا الصراع صورا طائفية من الطرفين..

بطبيعة الحال كانت البلاد تحتاج مع إعلانها شيعية إلى ثقافة دينية فاستعان الشاه اسماعيل ومن بعده بعلماء جبل عامل، فاستقدموا الشيخ عـلي عبد العال الكركي، ووالد الشـيخ البهائي حسـين بن عبد الصمد الحارثـي، والبهائـي نفسـه، وغيرهـم ممـن ذكرهم مؤلف كتـاب الهجرة العاملية إلى بلاد فارس.

واسـتمرت هـذه المرحلة، وهي التـي صار فيها التشـيع المذهب الرسـمي للدولـة، والمذهـب العـام للشـعب، وتعاملـت الحكومـات

(١) مقدمة كتاب الدروس الشرعية للشهيد الأول: ج١، ص٦٢.

التـي تعاقبـت عـلى إيران على هـذا الأسـاس، كالزنديـين والقاجاريين والبهلويين،وأخـيرا الثورة الإسـلامية بقيادة الإمـام روح الله الخميني، والتي أسـقط بواسطتها حكم الشاه محمد رضا بهلوي وأقام الجمهورية سـنة ١٩٧٩م، وهـي المرحلة التي نعيشـها، ولا شـك أنـه كان لها دور عظيم في انتشـار التشـيع كفكـرة متفاعلة ومقاومة في العالم الإسـلامي ككل، فضلا عن تأثر المجتمع الايراني بها.

لقـد كتب الكثير عن هذه الثـورة التي غيرت جملة من المعادلات السياسـية، وجعلت إيران في مقدمة المسـيرة في العالم الإسلامي، حيث امتد تأثيرها ونمط تفكيرها إلى أنحاء كثيرة في هذا العالم. ولم يقتصر هذا التأثـير على شـيعة العالم حيث تحولت بالتدريـج إلى مركز روحي متميز لهـم، بل تعـداه إلى جمهور عريض من أهل السـنة أيضـا وجدوا في هذه التجربة تجديدا لحياة الإسلام.

استنتاجات:

نستنتج مما سبق عدة أمور:

الأول: أن تأسيس التشيع لأهل البيت بالمعنى العقدي والفكري ثم نشره وتبليغه كان بواسـطة العرب المسلمين في جميع المراحل نستثني منهـا المرحلـة البويهية فـإن دور الأشـعريين في نقـل التشـيع معهم من الكوفـة عـلى أثر هجرتهم منها إلى قيم في الربـع الأخير من القرن الأول الهجـري واضح، وكذلك دور العلماء العـرب في القرن الثامن الهجري وفي طليعتهـم العلامة الحلي الذي صنع التحول لدى السـلطان المغولي، واسـتقدم فيما بعد عددا مهما من العلماء من طلبتـه للقيام بمهمات تبليغ المذهـب. وهكـذا الحال بالنسـبة للمرحلـة الصفوية في بدايـات القرن

العاشر الهجري فإن استقدام الشاه اسماعيل الصفوي للعلماء من جبل عامل والعراق والبحرين حتى وصل بعضهم إلى المواقع الأساسية في الدولة الصفوية، مما لا ينكر.

وهذا يبين أن ما يثيره البعض من الغبار في وجه طالبي الحقيقة من أن التشيع فارسي المنشأ والتأسيس، هو أمر لا يستند إلى أي معرفة تاريخية.. مع أننا لا نعتقد بميزة لشعب على شعب لجهة اللغة أو العنصر، فلا يضر التشيع أو التسنن أن يكون ناشئا من فارس أو تركيا أو الهند أو العراق، ولا ينفع أيا من المذهبين ذلك..

فإن المقياس في باب العقائد والأفكار هو صحتها في نفسها، ومطابقتها للأدلة النقلية من كتاب وسنة، والأدلة العقلية..

الثاني: أن وصف الشيعة أو حتى الإيرانيين منهم بالصفويين ينطوي على جهل بالموضوع التاريخي، فليست الصفوية عقيدة، ولا جريمة، وإنما هي أسرة أحسن فيها بعض أفرادها وأساء آخرون..

إن ذلك يشبه أنك تريد أن (تشتم) إنسانا تركيا فتناديه بـ(يا عثماني)!.

الصفويون أحسنوا أو أساؤوا جاؤوا في خاتمة المطاف، بعدما تهيأت الظروف وتكاملت في قبول الإيرانيين التشيع، بحيث لو جاء غيرهم لما توقفت الحركة تجاه التشيع من قبل الايرانيين، والشاهد على ذلك أن القاجاريين لم يكونوا يحملون خلفية مذهبية مؤيدة للتشيع بهذا المعنى، ولكنهم لم يستطيعوا أن يوقفوا هذه الحركة.

نعم كان الصفويون أذكياء في اكتشاف حقيقة ارتباط المجتمع

الايـراني بالتشـيع، فكانوا سـباقين في إظهـار علاقتهم بـه وحمايتهم له، وكان أن استفادوا من ذلك التفاف المجتمع الايراني حول حكمهم.



تاريخ الشيعة في القطيف والأحساء

المنطقـة الواقعـة على سـاحل الخليـج والتي كانت تُعـرف أحيانا بالخـط، أو البحرين أو القطيف، كانت موطن ربيعة (عبد القيس وبكر بـن وائل) ولكونها منطقة ذات خيرات زراعية كثيرة، وذات موقع ممتاز فقد سـيطر عليها الفرس باعتبارهـم الدولة الأقوى القريبة من المنطقة، وولـوا عليهـا واحدا مـن أبنائهـا كعامـل ووال. وهو المنذر بن سـاوي العبدي..

ولما بُعث رسـول الله ﷺ رحمة للعالمين، وأسَّس في المدينة دولة العـدل النبـوي، بدأ بمراسـلة من حـول المدينة لدعوتهم إلى الإسـلام، خصوصا بعد أن استقر له الأمر، وتغلب على قريش وعلى بقية أعدائه في عدد من الحروب والغزوات، بحيث يئس الذين كفروا من القضاء على الدعوة، واضطروا إلى التوقف مليا عن القتال. هنا اسـتفاد النبي ﷺ من الفرصة فبدأ يعرض الإسـلام على القبائل والمجتمعات، بعدما كان يعرضه على الأفراد في مكة. فبعث رسـول الله ﷺ في السـنة السادسة للهجرة، العلاء بن الحضرمي برسالة إلى المنذر بن ساوي، جاء فيها:

« بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوي أما بعد، فإن من صلى صلاتنا، ونسـك نسُـكنا، واسـتقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا فذاك هو المسـلم. له ما لنا، وعليه ما علينا، له ذمة الله ورسوله،

من أحب ذلك من المجوس فهو آمن، ومن أبى فعليه الجزية ».

فذهب العلاء إلى عبد القيس وهم أسلاف أهل هذه المنطقة وسكانها ودفعها إلى المنذر العبدي.

لم ينتظر المنذر كثيرا بعد أن قرأ رسالة النبي، وبعد أن أخبره العلاء بالمعالم العامة للدين بل أسلم وجمع قومه، ودعاهم للإسلام فدخلوا في دين الله أفواجا. ورجع العلاء بن الحضرمي لرسول الله يخبره بسرعة قبول المنطقة للدين، حاملا معه رسالة من المنذر إلى النبي بما نصه: « أما بعد، يا رسول الله، فإني قرأت كتابَك على أهل هَجَر، فمنهم من أحب الإسلام ودخل فيه، ومنهم من كرهه، وبأرضي مجوس، ويهود، فأحدِثْ لي، يا رسول الله، في ذلك أمرَك ».

فأجابه الرسول ﷺ بكتاب فيه: « من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوي، سلام عليك، فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو، وأنه من ينصح فلنفسه، ومن يطع رسلي فقد أطاعني، ومن نصح لهم فقد نصح لي، وأن رسلي قد أثنوا عليك خيرًا، وأني شفَّعتك في قومك، فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه، ومن أقام على مجوسيته فعليه الجزية »[١].

وهنا أرسل النبي أبان بن سعيد بن العاص[٢].

---

(١) لمعرفة تفاصيل الكتب المتبادلة بين النبي ﷺ وبين المنذر يراجع كتاب (مكاتيب الرسول للأحمدي الميانجي).

(٢) أبان بن سعيد بن العاص بن أمية، وإخوته خالد، وعتبة، مصداق لقول الله تعالى: ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ (سورة الروم، آية: ١٩)، فإن أباهم سعيد بن العاص قد قتله أمير المؤمنين علي عليه السلام ببدر، لكن أبناءه كانوا من أولياء أمير المؤمنين عليه السلام ولم يبايعوا بعد وفاة رسول الله حتى بايع بنو هاشم وأمير المؤمنين. (يراجع معجم رجال الحديث للإمام الخوئي: ج١، ص١٤١).

وهنـا اختلف المؤرخون فبعضهم يقـول: إن العلاء[1]، بقي واليا على قسـم من المنطقة وأبان على الآخر، وبعض يقول أن أبان كان بديلا للعلاء..

في السـنة التالية جاءت الوفود لرسول الله ومنهم وفد عبد القيس يرأسهم المنذر بن ساوي، والجارود العبدي الذي نعته الإمام علي عليه السلام بالصـلاح[2].. وسـألهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم ممـن القوم فقالوا مـن ربيعة، فقال: مرحبا بقوم غير خزايا ولا نادمين.

قال ابن حجر العسقلاني في فتح الباري: كان لعبد القيس وفادتان للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وأنه قال لأصحابه: سـيطلع عليكم ركب من هنا هم خير أهل المشرق فكان أن طلع عليهم وفد عبد القيس. والثانية كانت في عام الوفود[3].

ونقـل النميري في تاريخ المدينة مـا يفيد أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد حفظ لعبد القيس هذا الإقبال الطوعي على الإيمان بالرسالة، فكان أن شبههم بالأنصار في المدينة، وقال لهم: يا معشر الأنصار أكرموا إخوانكم فإنهم أشـباهكم في الإسـلام أشبه شيء بكم شعاراً وأبشـاراً، أسلموا طائعين

---

(١) يسـتفاد من بعض القرائن كون العلاء الحضرمي أو (ابن الحضرمي) من شـيعة أمير المؤمنين عليه السلام، وأما ابنه عبد الرحمن فقد ورد ذكر اسمه في أسانيد كثير من روايات مناقب الإمام علي عليه السلام، كما في الأمالي للشيخ الصدوق ص ٥٧٤: بسنده إلى رسول الله أنـه كان جالسـا ذات يوم وعنده علي وفاطمة والحسـن والحسـين عليهم السلام، فقال: اللهـم إنك تعلـم أن هؤلاء أهل بيتي وأكرم الناس علي فأحبب من أحبهم، وأبغض مـن أبغضهم، ووال مـن والاهم، وعاد مـن عاداهم، وأعن من أعانهـم، واجعلهم مطهرين من كل رجس، معصومين من كل ذنب، وأيدهم بروح القدس.

(٢) في رسـالة منـه إلى ولده المنذر: فإن صـلاح أبيك غرَّني منك وظننـت أنك تتبع هديه وتسلك سبيله، نهج البلاغة، خطب الإمام علي عليه السلام ج٣، ص١٣٢.

(٣) فتح الباري، ابن حجر، ج١، ص١٢١.

غير مكرهين ولا موتورين إذ أبى قوم أن يسلموا حتى قُتلوا.

وبعض المؤرخين يذكر هنا في سبب تسمية جواثا.. المسجد المعروف الموجود في الأحساء والذي أقيمت فيه أول جمعة بعد المدينة، أن النبي ﷺ لما أرسل رسوله إلى عبد القيس أمره بأن يتخذ مكان جثو الناقة مسجدا[1]، فكان هذا الموضع، وقد صليت الجمعة في المدينة ثم في الأحساء في هذا المسجد.

هناك روايات تقول أن أبا هريرة أيضا كان مع العلاء مؤذنا له، وأنه بقي هناك إلى أن توفي الرسول فلم يرجع إلى المدينة، ومن هذا يقول هؤلاء المؤرخون أن فترة وجود أبي هريرة مع النبي لم تتجاوز السنة وتسعة أشهر حيث أسلم في أواخر صفر سنة ٧ هجرية وذهب مع العلاء في ذي القعدة سنة ٨ هجرية..

وقد تحدث بعض المؤرخين عن ما قيل من ردة أهل البحرين، وقيام عبد القيس بمقاتلتهم إلى أن ردوهم بقيادة العلاء الحضرمي.. (ونحن نقول هذا مع تأملنا في حدود موضوع الردة والدعوة إلى النظر التاريخي التحقيقي في أحداثها..).وتقاتل العلاء ومن معه من عبد القيس بعد أن عبر من القطيف إلى تاروت ومنها إلى دارين، واصطدموا بالحطم بن ضبيعة قائد الجيوش المخالفة فهزموهم.. وكذلك الحال في الأحساء في منطقة جواثا..

بقي الوضع هكذا إلى سنة ٢٠ هجرية، حيث توفي العلاء فولى الخليفة الثاني قدامة بن مظعون[2] على الجباية، وأبا هريرة على الأحداث

---

(١) وقيل أن سبب التسمية راجع إلى أنه كان لعبد القيس حصن بهذا الاسم فسمي المسجد باسم جواثا.

(٢) السنن الكبرى، البيهقي: ج ٨، ص ٣١٥: أن عمر رضي الله عنه استعمل قدامة بن مظعون على البحرين وهو خال حفصة و عبد الله بن عمر فقدم الجارود سيد عبد

فعـزل الأول وحـدّه بعـد أن ثبت عليـه شرب الخمـر[1] وضرب الثاني بالدرة حتى أدمى ظهره، وصادر منه مبلغا كبيرا من المال، قيل إنه عشرة آلاف[2]، وقيل غيره.

نصرة عبد القيس لأمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ:

وفي زمان أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ كان الوالي عليها عمر بن أبي سلمة المعروف بولائه لأمير المؤمنين.إلى أن استدعاه الإمام لقتال أهل صفين وكتب له في ذلك رسالة جاء فيها « فقد أردت المسير إلى ظلمة أهل الشام وأحببت أن تشهد معي فإنك ممن أستظهر به على جهاد العدو وإقامة أمر الدين إن شاء الله.. »[3].

ومن الطبيعي أن يكون عمر بن عبد الأسد (ابن أبي سلمة) قد

القيس على عمر فقال يا أمير المؤمنين إن قدامة شرب فسكر وأني رأيت حدا من حدود الله حقا على أن أرفعه إليك فقال عمر: من شهد معك؟ قال: أبو هريرة! فدعا أبا هريرة فقال: بم تشهد؟ فقال: لم أره شرب ولكني رأيته سكران يقئ! فقال عمر: لقد تنطعت في الشهادة! قال ثم كتب إلى قدامة أن يقدم عليه من البحرين فقدم فقام إليه الجارود فقال: أقم على هذا كتاب الله! فقال عمر: أخصم أنت أم شهيد؟ قال: بل شهيد!قال: فقد أديت الشهادة! فصمت الجارود حتى غدا على عمر فقال: أقم على هذا حد الله فقال عمر: ما أراك إلا خصما وما شهد معك إلا رجل! فقال الجارود: إني أنشدك الله! فقال عمر: لتمسكن لسانك أو لأسوءنك! فقال أبو هريرة: إن كنت تشك في شهادتنا فأرسل إلى ابنة الوليد فاسألها وهي امرأة قدامة. فأرسل عمر إلى هند بنت الوليد ينشدها فأقامت الشهادة على زوجها فقال عمر لقدامة: إني حادك! فقال: لو شربت كما يقولون ما كان لكم تجلدوني!فقال عمر لم؟ قال قدامة: قال الله عز وجل ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ ﴾ الآية قال عمر عنه أخطأت التأويل إن اتقيت الله اجتنبت ما حرم الله عليك..

(١) وفي هذا وأمثاله غير قليل ما يشير لبطلان نظرية عدالة جميع الصحابة وأنهم فوق مستوى الوثاقة، خصوصا أنه لم يحتج قدامة في درء الحد عنه بذلك.

(٢) أضواء على السنة المحمدية، الشيخ محمود أبو رية.

(٣) نهج البلاغة رقم ٤٢.

ناصح إمامه في تبليغ رسالته وبيان ما ينبغي على أهل المنطقة فعله من ولاء أمير المؤمنين، كيف لا وأمه أم سلمة زوجة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، التي كان موقفها في غاية الانسجام مع أمير المؤمنين عليه السلام كما يظهر من تتبع أخبارها[1].

ناصَر العبديون أمير المؤمنين عليه السلام في مواقفه المختلفة، وبرز منهم الكثير من أنصاره[2]، فمنهم: أبو أمية بن الأصم فارس عبد القيس، وهو القائل في حرب الجمل:

معاشر عبد القيس موتوا على التي تسرُّ عليًا، واحذروا سُبَّة الغدر
ولا ترهبوا، في الله، لومة لائم وموتوا كرامًا فهو أشرف للذكر

وأما في صفين فقد كانت ربيعة (ومنهم عبد القيس في طليعة مقاتلي أمير المؤمنين والصامدين معه) وكانت عبد القيس من أبرز قبائل ربيعة في جيشه، وقد كان ابن الأشج على أهل هجر في جيش علي في حرب الجمل، أما في صفين فقد قال الإمام علي لرؤساء ربيعة: (أنتم درعي ورمحي، أنتم أنصاري ومجيبو دعوتي ومن أوثق حي في العرب في نفسي)، وفي صفين أيضاً كان حامل راية ربيعة هو الحضين بن منذر (ابو ساسان) فقال فيها الإمام علي عليه السلام:

لنا الراية الحمراء يخفق ظلها إذا قيل قدمها الحضين تقدما

(١) يراجع كتاب (نساء حول أهل البيت: ج ١) للمؤلف.

(٢) وصل الأمر إلى درجة أنه إذا خالف أحدهم ولاء أمير المؤمنين علي عليه السلام كان يشار إليه ويعرف كما تتبين النقطة السوداء في القطيفة البيضاء، مثلما ذكر ابن الأثير في الكامل أن (صحار بن عباس (أو عياش) العبدي كان مخالفا لقومه على حب علي) وكذلك قال ابن دريد في الاشتقاق. وقال الثقفي في الغارات: عند الحديث عنه: وكان عثمانيا وكانت عبد القيس تتشيع فخالفها!.

ويدنو بها في الصف حتى يزيرها حمام المنايا تقطر الموت والدما

إلى أن قال:

جزى الله قوماً قاتلوا في لقائهم لدى البأس خيراً ما أعف وأكرما

ربيعة أعني إنهم أهل نجدة وبأس إذا لاقوا خميساً عرمرما

ومنهم: جويرية بن مسهر العبدي من ثقات أمير المؤمنين وصُلِب أيام معاوية على الولاية.

ومنهم: صعصعة بن صوحان الذي قال فيه الإمام علي: إني ما علمتك إلا خفيف المؤونة كثير المعونة، وقال فيه الإمام جعفر الصادق عليه السلام: ما كان يعرف حق أمير المؤمنين إلا صعصعة وأصحابه)، وإخوانه: سيحان بن صوحان، وزيد بن صوحان ومنهم حكيم بن جبلة العبدي[1]، والمثنى بن مخربة العبدي رئيس ثوار البصرة على عثمان، وذريح بن عباد العبدي[2]، ورشيد الهجري[3]، وعمرو بن

(١) قتل أصحابُ الجمل في أول أمرهم -لما احتلوا البصرة - ثلاثمائة من رجال عبد القيس من أصحاب حكيم بن جبلة.. وقيل إنهم آمنوهم أول الأمر ثم قتلوهم!! وأبّن أمير المؤمنين حكيما وأصحابه بقوله: إنه أتاني خبر متفظع ونبأ جليل: أن طلحة والزبير وردا البصرة فوثبا على عاملي فضرباه ضربا مبرحا وترك لا يدرى أحي هو أم ميت، وقتلا العبد الصالح حكيم بن جبلة في عدة من رجال المسلمين الصالحين لقوا الله موفين ببيعتهم ماضين على حقهم، وقتلا السبابجة خزان بيت المال الذي للمسلمين، قتلوهم صبرا، وقتلوا عذرا..

(٢) ذريح (على وزن أمير) كان فيمن قتله أصحاب الجمل في البصرة.

(٣) استشهد على يد عبيد الله بن زياد على أثر ثباته على موقفه من الإمام علي كما ذكر ذلك (السيد محسن الأمين في أعيان الشيعة: ج٧، ص ٦)، قال: ناقلا عن أبي حسان العجلي لقيت أمة الله بنت راشد الهجري فقلت لها اخبرني بما سمعت أباك قلت سمعته يقول: قال حبيبي أمير المؤمنين عليه السلام يا راشد كيف صبرك إذا أرسل إليك دعي بني أمية فقطع يديك ورجليك ولسانك فقلت يا أمير المؤمنين أيكون آخر

مرجوم العبدي الذي كان قد قدم ضمن وفد عبد القيس على رسول الله ﷺ، وكان مع علي في مواقفه وجاء لأمير المؤمنين في يوم الجمل مع أربعة آلاف، ومنهم عبد الله بن جرير العبدي[1]، وغيرهم.

«وقد كان الإمام علي لا يعدل بربيعة أحداً من قبائل العرب سوى همدان. وبذلك فإن قبائل ربيعة أهل البحرين خاصة عبدالقيس وبكر بن وائل وبوقوفهم مع الإمام علي أصبحوا بالتالي مناهضين للحكم الأموي مما جلب عليهم سخط بني أمية، وكذلك الأمر في عهد بني العباس فأصبحوا من المغضوب عليهم، وأهملت البحرين وأصبحت منفى للمعارضين، فكانت أرضا خصبة لكل من أراد الثورة أو الخروج على الحكم منذ عهد الخوارج الى صاحب الزنج الى القرامطة»[2].

وهنا يلاحظ أن عددا غير قليل من بني عبد القيس قد انتقلوا إلى الكوفة بعد تمصيرها وخصوصا بعدما سكنها أمير المؤمنين عليه السلام والبصرة بعد حرب الجمل، ولذلك نسب العبديون الذي انتقلوا بنسبة الكوفي والبصري فيقال العبدي الكوفي أو البصري، وأحيانا كانت

ذلك إلى الجنة قال نعم يا راشد وأنت معي في الدنيا والآخرة، قالت فوالله ما ذهبت الأيام حتى أرسل إليه الدعي عبيد الله بن زياد فدعاه إلى البراءة من أمير المؤمنين عليه السلام فأبى أن يبرأ منه فقال له ابن زياد فبأي ميتة أخبرك صاحبك أنك تموت قال أخبرني خليلي إنك تدعوني إلى البراءة فلا أبرأ فتعذبني فتقطع يدي ورجلي ولساني فقال والله لأكذبن صاحبك قوموا فاقطعوا يديه ورجليه واتركوه فقطعوه وحملوه إلى منزلنا ثم دخل عليه جيرانه ومعارفه يتوجعون له فقل إئتوني بدواة وصحيفة أذكر لكم ما يكون مما علمنيه مولاي أمير المؤمنين فبلغ ذلك ابن زياد فأرسل إليه الحجام حتى قطع لسانه فمات من ليلته.

(١) ورد ذكره في نقل خطبة لأمير المؤمنين في جوامع التوحيد. وفي بعض الكتب عبر عنه عبد الله بن حريث العبدي.

(٢) النزر ؛ خالد: مقال في موقع الكتروني: أقلام نت.

النسبة إلى البلد هذا تغلب على النسبة إلى القبيلة.

وتلاحظ نقطة أخرى أيضا وهي أن هؤلاء لما استقروا في تلك المناطق، صار غير العرب يوالونهم ويتعاقدون معهم، ولذلك سوف نجد فيما بعد أن قسما من هؤلاء يوصفون بأنهم موالي العبديين.

شهداء عبد القيس في معركة كربلاء:

في أصحاب الحسين عليه السلام في كربلاء يعد المؤرخون عشرة[1] قد استشهدوا من العبديين:

١- أدهم بن أمية العبدي كان من شيعة البصرة،وحضر أيضا في منزل (مارية بنت منقذ)[2]، استشهد يوم العاشر من محرم في الهجوم الأول[3]:

٢- وسيف بن مالك العبدي،

٣- سالم مولى عامر بن مسلم العبدي،

٤- عبدالرحمن بن عبدالله بن يزيد العبدي،

٥- عبدالله بن يزيد العبدي،

---

(١) في الزيارة التي فيها أسماء الشهداء (يراجع قضايا النهضة الحسينية ج ١ للمؤلف) ذكر من شهداء العبديين ٦ شهداء، والملاحظ أنهم من غير ألقاب مثل عامر بن مسلم، ومولاه، وسيف بن مالك، وفي بعضها الآخر بلقب القيسي كما هو في يزيد بن ثبيت (العبدي) القيسي وابناه عبد الله وعبيد الله. وهم بهذا العدد يشكلون ما نسبته ١٠٪ من شهداء كربلاء بناء على أن عدد الشهداء قد تجاوز المئة بقليل.

(٢) العبدية: كان لها منزل في البصرة يجتمع فيه شيعة أهل البيت ويتداولون فيه أمورهم، ومن هذا المنزل والملتقى انطلق عدد من العبديين إلى كربلاء لنصرة الحسين عليه السلام، للتفصيل راجع: نساء حول أهل البيت عليهم السلام ج١، نساء حول الحسين عليه السلام.

(٣) وسيلة الدارين في أنصار الحسين:٩٩.

٦- زهير بن سليم العبدي الأزدي،

٧- عامر بن مسلم العبدي،

٨- يزيد بن ثبيت العبدي،

٩- عبد الله،

١٠- وعبيد الله ابنا يزيد بن ثبيت العبدي.

وبعد كربلاء وجدنا المثنى بن مخربة العبدي يكون له دور مهم في حركة التوابين، ويحشد أهل البصرة للمشاركة فيها وكان مبرزا بينهم حيث قاد ثلاثمائة رجل منهم واشترك مع التوابين في القتال، لكنه لم يستشهد، ثم كان مع المختار الثقفي في سنة ٦٦هـ فقد وكله ليدعو الناس إليه فدخلها وبنى مسجداً اجتمع فيه مؤيدوه وبدأ الدعوة للمختار.

عبد القيس في خط الصادقين عليهما السلام:

في أيام الصادقين (الإمام محمد الباقر وجعفر الصادق عليهما السلام كان من العبديين محدثون وشعراء على خط الولاية، مثل سفيان بن مصعب ويحيى بن بلال وغيرهما وقد قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام في سفيان: « **عَلِّمُوا أَوْلَادَكُمْ شِعْرَ الْعَبْدِيِّ فَإِنَّهُ عَلَى دِينِ الله** »..وله في المناظرات شعر، وأمره الصادق عليه السلام فقال: قل شعرا تنوح به النساء.. وقد أنشد أمام الصادق عليه السلام قصيدته في رثاء الحسين عليه السلام التي مطلعها: فَرَوُ جودي بدمعك المسكوب. فارتفعت أصوات النساء بالبكاء[1].

وأما الرواة فيكثر عددهم حتى لو أردنا الاستقصاء لخرجنا عن

---

(١) الكافي: ج ٨، ص٢١٦.

مجال الحديث فمنهم، ربعي بن عبد الله[1]، ومسعدة بن صدقة، وعروة بن جميع، وأبو الصباح الكناني إبراهيم بن نعيم، وعلي بن الحسين.

ومنهم بالولاء عبد الصمد بن بشير[2]، وعبد الله بن أبي يعفور والحسين بن حماد بن ميمون العبدي، والمثنى بن عبد السلام العبدي، وأبان بن أبي عياش فيروز.. وغيرهم.

وقد استمروا في ولائهم حين تكرس حكم الدولة الأموية وفي أيامها كانوا بين المطرقة والسندان، أو بين نارين: نار الخوارج الذين نشطوا في سواحل عُمان وجنوب البصرة حيث كان هؤلاء يعتقدون بكفر أمير المؤمنين علي عليه السلام، وأن هؤلاء الذين يوالون عليا يوالون رجلا كافرا فلا بد من قتالهم.

ونار الأمويين الذين كانوا حانقين على أهل المنطقة خصوصا وإنهم لم يبايعوا الأمويين ولم يسلموا لهم بالإتباع. ويظهر أن المنطقة في العهد الأموي تحولت إلى مكان يلجأ إليه المعارضون للحكم الأموي فيجدون فيه الجو

---

(١) الثقة ورد اسمه في أسانيد ٧٩ رواية، ومسعدة بن صدقة الثقة من أصحاب الصادق عليه السلام، وعروة بن جميع الذي روى عنه يونس بن عبد الرحمن وعثمان بن عيسى من أصحاب الإجماع، وأبو الصباح الكناني إبراهيم بن نعيم الذي روي أن الإمام الصادق عليه السلام كان يلقبه بالميزان لوثاقته، وعلي بن الحسين من أصحاب الصادق.

(٢) عبد الصمد بن بشير الثقة الذي ورد ذكره في أسانيد ٣٥ رواية، وعبد الله بن أبي يعفور الثقة الجليل في الأصحاب والحسين بن حماد بن ميمون العبدي الذي ورد اسمه في أسانيد ٢٢ رواية، والمثنى بن عبد السلام العبدي الذي أثنى عليه الكشي، وأبان بن أبي عياش فيروز الذي يروي كتاب سليم وقد نقل بعضهم عن ابن قتيبة في المعارف: أن عبد القيس كانت تفتخر بأن بين مواليها أبان بن أبي عياش. وهو وإن ضعف في بعض كلمات أصحابنا إلا أن بعض المحققين أرجع ذلك إلى كلمات مخالفي أهل البيت، وكونه من رواة الأحاديث التي لا يتحملها البعض منهم، وللتفصيل يراجع كتاب سليم بن قيس بتحقيق: محمد باقر الانصاري الزنجاني.

المنسجم مع توجهاتهم،وخصوصا أنها كانت ذات طرفين، فالبحرين كانت تمثل الموئل الخلفي لمن يفر من القطيف، وبالعكس.. مما حدا بعبد الملك بن مروان أن يبعث بالمبلغين والدعائيين فلما لم ينجحوا جرّد حملة للعقوبة فقامت تلك الفئات العسكرية بتخريب في المنطقة، وبطمر للعيون التي كانت تروي مزارعها، وبالذات عين تسمى عين السيجور في البحرين.. واستغل حربه مع الخوارج لتصفية حساباته مع الشيعة..

أيام العباسيين أيضا كانت الأمور تراوح واستمرت الأمور هكذا، بحيث يقوم خليفة ويسقط آخر، وكل شيء يتغير غير شيء واحد ظل ثابتا هو خط الولاء لأمير المؤمنين.. وشهدت بعض الثورات ضد العباسيين ولكنها كانت تخمد..

وكانت محاولات من قِبَل صاحب الزنج للسيطرة على المنطقة في حوالي سنة ٢٤٩ هـ، واستقطاب أهلها باعتبارهم غير منسجمين مع الخلافة العباسية، لكن صدور توقيع عن الإمام الهادي عليه السلام بشأنه وأن « صاحب الزنج ليس منا أهل البيت »[١] جعل هذه المحاولات عقيمة. بل تصدى له العريان في بني عبد القيس وأخرجوه من بلادهم[٢].

العيونيون يهزمون القرامطة:

وحصل في المنطقة في وقت متأخر حوالي سنة ٢٨٥ هـ مجيء القرامطة إلى المنطقة واستفحل وجودهم، واحتلوا القطيف، وتوجهوا

---

(١) هناك خلاف في انتساب علي بن محمد المعروف بصاحب الزنج، فالأكثر على أنه ليس من بني هاشم، وقد كان رفع هذا الشعار من أجل جلب الناس لتحركه.. وكلمة الإمام الهادي عليه السلام، شاملة للجهتين، فهي -على فرض صدورها- تنفي النسب، وتنفي تطابق المنهج، مثل ليس منا من دعا إلى عصبية. وليس منا من غشنا.

(٢) العوامي: السيد عدنان، مقال بعنوان القطيف.

لاحتلال الأحساء وقتلوا جمعا كبيرا من عبد القيس بعد قتل زعمائهم.. والعجيب أن هناك من الجهلة والطائفيين من يدّعي بأن القرامطة هم من الشيعة مع أنهم عندما وصلوا إلى المنطقة، فتكوا بأهلها فتكا ذريعا حتى أحرقوا بعض زعمائها أحياء. وإلى هذا المعنى يشير الشاعر علي بن المقرب العيوني[1] في قصيدته التي بين فيها بعض ما ارتكبه القرامطة بحق عبد القيس -شيعة أهل البيت عليهم السلام-:

---

(١) ترجمه الشيخ البلادي البحراني في أنوار البدرين بقوله: الشيخ علي بن مقرب: فمن أدبائها البلغاء وأمرائها النبلاء الأمير الأديب الأريب المهذب الشيخ علي بن مقرب الأحسائي ينتهي نسبه إلى عبد الله بن علي بن إبراهيم العيوني الذي أزال دولة القرامطة من ربيعة وكان هذا الشيخ أديبا فاضلا ذكيا أبيا شاعرا مصقعا من شعراء أهل البيت عليهم السلام ومادحيهم المتجاهرين ذا النفس الأبية والأخلاق المرضية والشيم الرضية وقد كشف جامع ديوانه وشارحه كثيرا من أحواله بتفصيله وإجماله وهو مطبوع الآن وإن كان الظاهر أنه من المخالفين له في المذهب ولهذا حذف من أشعاره المراثي والمدائح وجرد منها ما هو الأولى والأحرى بالذكر والصالح وتحتمل التقية في حقه وقد وقفت له على مراثي كثيرة على الحسين عليه السلام سبط المصطفى منها المربعة في نظم مقتل الحسين عليه السلام ومنها قصائد من جملتها المشهورة التي أولها:

من أي خطب فادح نتألم ... ولأي مرزئة ننوح ونلطم

إلى أن يقول في آخرها:

قمنا بسنتكم وحطنا دينكم ... بالسيف لا نالوا ولا نتبرم

وعلى المنابر صرحت خطباؤنا ... جهرا بكم وأنوف قوم ترغم

لا تسلموني يوم لا متأخر ... لي عن جزا عملي ولا متقدم

وفي نظمه الحماسة والأمثال الجيدة مع البلاغة المستحسنة وقد أصابته من بني عمه نكبات أوجبت له تجشم الغربات وفي ديباجة شرح ديوانه شرح لما لقيه في زمانه من أراده فهو مبذول.

وفي هامش الكتاب المذكور: ومن جملة قصائده في رثاء الحسين عليه السلام قصيدة عينية أولها:

يا باكيا لدمنة ومربع ... ابك على آل النبي اللوذعي

ويقول في آخرها:

يا آل طه أنتم وسيلتي ... عند إلهي وإليكم مفزعي

وحرّقوا عبد قيس في ديارهمُ   وصيروا الغرّ من ساداتهم حمما

فكان العيونيون وهم من شيعة أهل البيت عليهم السلام من ٤٦٠ هـ إلى حوالي ٢٠٠ سنة بعد ذلك وهم الذين قاوموا القرامطة واستطاعوا إخراجهم بعد جولات عنيفة من القتال المستمر[1] لمدة سبع سنوات وقد سجل الشاعر العيوني علي بن المقرب هذا في قصيدته المذكورة حيث قال:

وحرّقوا عبد قيس في ديارهمُ   وصيروا الغرّ من ساداتهم حمما
سل القرامط من شظّى جماجمهم   فلقا وغادرهم بعد العلا خدما

وحكموا المنطقة طيلة هذه الفترة.

ولكي يتبين لك مدى تغلغل منهج أهل البيت واستحكامه في المنطقة، ننقل لك ما ذكره ابن بطوطة في كتابه المعروف (رحلة

(١) ذكر الشيخ علي البلادي البحراني في أنوار البدرين، ص ٣٩٣: ما يلي: (أقول): ولم تزل القرامطة في دولتهم ومنكراتهم حتى أباد الله دولتهم وأخمد صولتهم بظهور الأمير عبد الله بن علي العيوني الأحسائي آل إبراهيم من ربيعة جد الأمير علي بن مقرب الشاعر الأديب فبقي يراوحهم ويغاديهم بالحرب مدة سبع سنوات وهو في أربعمائة رجل وربما تزيد قليلا حتى ذهبت أيامهم وعفت رسومهم وأعوامهم ومن جملة ما اتفق في إدبار أمرهم وقطع شرهم أن أبا البهلول العوام بن محمد بن الزجاج الذي أحدث قرية العوامية من بني عبد القيس تغلب على جزيرة أوال وانتزعها من أيديهم وطرد عاملهم عنها فلما سمعوا الخبر حشدوا الجنود الكثيرة من الأعراب وغيرهم وأتوا بهم إلى القطيف وكانت لهم فجهزوا ثلثمائة سفينة مملوءة عساكر وعليهم أمير من جهتهم فلما توسطوا البحر بين البحرين والقطيف في الموضع المعروف إلى الآن بكسكوس عصفت بهم ريح عظيمة فأغرقتهم جميعا إلى أن صار ما ذكرناه من قطع أدبارهم وقلع آثارهم وقد أشار إلى ذلك الأديب الشاعر المهذب علي بن مقرب في بعض قصائده بقوله:

سل القرامط من شظى جماجمهم   طرا وغادرهم بعد العلا خدما
وما بنوا مسجدا لله نعلمه   بل كلما وجدوه قائما هدما
وحرقوا عبد قيس في منازلها   وغادروا الغر من ساداتها حمما

ابـن بطوطة) ففيـه يقول: « ثـم سـافرنا إلى مدينة القطيـف كأنه تصغير قطـف(!)، وهـي مدينـة كبيرة حسـنة ذات نخل كثير يسـكنها طوائف العرب وهم رافضية[1] غلاة!! يظهرون الرفض جهارا ولا يتقون أحدا ويقول مؤذنهم في أذانه بعد الشهادتين أشهد أن عليا ولي الله، ويزيد بعد الحيعلتين (حي على الصلاة حي على الفلاح) حي على خير العمل...

ثم يسترسـل ويذكر عن مدينة الأحسـاء، ويؤكد على أن سكانها عرب (لا كما يشوش البعض فيربط بين التشيع وبين الانتماء غير العربي) وأنهم من عبد القيس.. فيقول:

ثم سـافرنا منها إلى مدينة هجر وتسـمى الآن بالحسـا وهي التي يُـضرب المثل بها فيقال كجالب التمر إلى هجر، وبها من النخيل ما ليس ببلد سواها، ومنه يعلفون دوابهم، وأهلها عرب وأكثرهم من قبيلة عبد القيس بن أفصى »[2].

وأنـت تلاحـظ أن هذه الشـعائر المعروفة عن شـيعة أهل البيت، كانت سائدة في المنطقة منذ ما يقارب السبعة قرون من الزمان.

التعاون مع العثمانيين لصد البرتغاليين

ونظرا لكون المنطقة ذات خيرات كثيرة، فقد أُغري بها الطامعون من مختلف الآفاق فجاء البرتغاليون واحتلوا المنطقة، ولهذا ترون أن قسما

---

(١) مـا أشـبه الليلـة بالبارحـة.. هذا هو الخطـاب الطائفي الـذي لا يزال عند قسـم من الناس.. لماذا هم غلاة؟ لأنهم يظهرون عقائدهم؟ ويقولون أشـهد أن عليا ولي الله؟ أو أنهـم يقولـون حي على خير العمل!! وورطة شـيعة أهل البيـت ورطة فإن كتموا عقيدتهم وأخفوا شـعائرهم اتهموا بأنهم منافقون وبأنهم يكيدون للدين.. إلخ، وإن أظهروا عقيدتهم وأعلنوا شعائرهم صاروا غلاة ورفضة!! فماذا يصنعون؟.

(٢) رحلة ابن بطوطة، ٢٨٠، طبعة دار صادر.

من الآثار الباقية تعود لهؤلاء الغزاة، وهنا موقف يبين منهاج شيعة أهل البيت عليهم السلام في مقاومة التحديات التي تواجههم، فإن المنطقة لما احتُلَّت مـن قِبَل البرتغاليـين، قام أهل المنطقة بالاتصال بالأتـراك العثمانيين ولم يمنـع الخلاف المذهبي الموجود (باعتبار كـون الأتراك حنفيي المذهب) مـن ذلـك التواصـل والتعاون عـلى طـرد المسـتعمر الأجنبـي الكافر، وبالفعـل كان نتيجة ذلك أن أُخـرج البرتغاليون من المنطقة،مع أنه كان يمكـن لأهل المنطقة أن يضمنوا لأنفسـهم حماية قـوة كبرى تصد عنهم غـارات البـدو وأعداء المحيط.ولكنهـم ضمن ثوابتهـم الدينية رأوا أن عليهم أن يتحالفوا مع الأتراك المسلمين ضد الكفار الأجانب، وسوف يكررهـا أهـل المنطقة في وقت لاحق كما سـيأتي.وبقي الأتـراك فيها إلى حوالي سنة ١٠٨٠ هـ مع أن الأتراك قد أساؤوا إلى أهل البلاد في فترات مختلفة، واضطهدوهم[١].

---

(١) ذكـر ذلك المحقق السـيد عدنان العوامـي في مقالة له بعنوان القطيـف وننقل ما قاله بنصه –على طوله لفائدته–: دخول الأتراك: كان راشـد بن مغامس، قد اسـتولى على الأحسـاء مـن الجبريين، وضمها إلى إمارته في البصرة سـنة ٩٣١هــ ١٥٣٤م، وعند دخول السلطان العثماني سليمان القانوني بغداد، تنازل له عن الحكم، وسلم له مفاتيح إمارته، وتقديرًا من السـلطان لمبادرة الشـيخ راشـد هذه أنعم عليه بالولاية فدخلت الأحسـاء تلقائيًّا في حوزة العثمانيين، فأسـند راشـد بن مغامس إدراة شـؤون الحكم في الأحسـاء إلى ولـده مانع، وكأن أهالي القطيف كانوا يتحينـون الفرصة طويلاً كي يتخلصوا من هيمنة الإحتلال البرتغالي، فقاموا في سنة ٩٤٦هـ ١٥٣٩هـ بالثورة على والي البرتغاليين الهرمزي عبد الغفور بن عبد الرحيم، وأعلنوا انضمامهم إلى أشقائهم الأحسـائيين تحـت حكم والي العثمانيين راشـد بن مغامس، ولكن ولـده مانعًا –على ما يبدو– كان غرًا طائشًـا، ولم يكن يعرف ما بين القطيف والأحسـاء والبحرين من أواصر القربى، فقام بمحاولة غزو البحرين، مما أغضب أهالي الأحسـاء والقطيف، فثاروا عليه، فلم يتمكن من تحقيق غرضه فلجأ إلى البصرة، ويبدو أن أباه راشدًا أعاد ترتيب الأوضاع بتهدئة مشاعر الأهالي، فاستتب له الأمر إلى حين.

بعد خمس من السـنين، أي في سـنة ١٥٥٠م، وجد أهل القطيف فرصة أخرى للخلاص

استمر الأتراك في حكم المنطقة مدة ١٢٠ سنة، ثم ضعف أمرهم، فاستطاع بنو خالد السيطرة على المنطقة، وأيضا بقوا يحكمونها مدة ١٢٠ سنة تقريبا، وقد تداخلوا في هذه الفترة مع الأهالي مما جعلهم يتأثرون بطريقة حياتهم، وثقافتهم، وكان نتيجة ذلك التداخل الاجتماعي والتأثر الثقافي أن وجدنا قسما من بني خالد قد تأثروا بمذهب أهل البيت عليهم السلام، ولعل الناظر إلى العوائل والقبائل هنا يلحظ عددا من القبائل لم يكن التشيع فيها قبل ثلاثمائة سنة لكن بدأ فيها خلال هذه الفترة، فتشيعت قبائل بكاملها أو نسبة منها، ولا يزالون إلى يومنا هذا.

من حكم الأجنبي، فقاموا بطرد المعتمد الهرمزي المعين من قبل البرتغاليين، وأوفدوا أعيانهم إلى بغداد لطلب الحماية، من العثمانيين، فتخلصت البلد، مرة أخرى، من الاستعمار الأوروبي، لكن العثمانيين خيبوا الآمال بما مارسوه مع الأهالي من ظلم وجور، بما فرضوه من الضرائب والإتاوات، ومصادرة الأراضي، والأملاك حتى أنهم لم يستثنوا، من المصادرة، ميراث الميت الشيعي، فاعتبروا الميت من أهل القطيف مشركًا، أو كافرًا، مستحلاً ماله، مهدورًا دمه، مما حمل الناس على وقف عقاراتهم وبساتينهم حماية لها من المصادرة، ناهيك عن فرار كثير من الأهالي إلى البلدان المجاورة كالبصرة وأبي الخصيب، بالعراق، وأبي شهر والمحمرة، ولجنة وغيرها من المدن الإيرانية، وبسبب هذه الممارسات الظالمة شهدت المنطقة عمومًا، والقطيف بصورة خاصة، ثورات متلاحقة، شارك فيها حتى قادة الجند العثماني تضامنًا مع الأهالي، وفي أواخر القرن السادس عشر بلغ تعسف العثمانيين ذروته مما ألهب مشاعر العداء تجاههم، وفي ظل هذه الأوضاع المتردية ثار الأهالي، وفي طليعة الثوار قبيلة بني خالد، بقيادة زعيمهم الشيخ سعدون، فانضم إليه زعماء القطيف بقيادة عبد الله بن ناصر بن مقلد حتى استخلصوا الأحساء كلها من العثمانيين، ومن القطيف استخلصوا صفوى وحدها، بينما استطاع العثمانيون إحكام قبضتهم على القطيف وقراها بسبب الإمدادات العسكرية التي وصلتهم من البصرة وبغداد وشهرزور. وبسبب عنف المقاومة نزح عدد من أعيان القطيف ووجهائها إلى البحرين برفقة زعيمهم الأكبر عبد الله بن المقلد، وشاعرهم الشهير أبي البحر جعفر الخطي، وذلك في شهر ذي الحجة سنة ٩٩٩هـ، سبتمبر ١٥٩١م. وعلى ذات الوتيرة كان تعامل أهل القطيف مع ابراهيم باشا عندما غزاها، فطردوا قواته سنة ١٢٣٥هـ/ ١٨١٩م، أي بعد أقل من عام من سيطرته عليها سنة ١٢٣٣هـ/ ١٨١٨م.

ويرجع سـبب ذلك إلى القاعدة الاجتماعية في أن الفكر الصحيح أقوى من الآلة العسـكرية، وهو نفس الأمر الذي جعل المغول يتأثرون بالإسلام ويسلمون مع أنهم جاؤوا فاتحين في الأصل هذا مع الفارق بين المثالين ولكن الغرض هو الاستشهاد. وهناك سبب آخر محتمل وهو أن الخوالد قد تعاملوا مع المنطقة بحالة منفتحة، دون أن يكون هناك شحن طائفـي يُقصد منه فصل الفئات عـن بعضها، ومنع التأثر والتأثير بينها! بخلاف ما صار موجودا في أزمنة متأخرة.

غـير أن الأمـر لم يسـتمر لبنـي خالـد، فعـاد الأتراك مـرة أخرى وسيطروا على المنطقة، وقد شهد عهدهم الجديد حالة من الانفتاح الثقافي والحريـة، وحصل في وقت متأخر انتشـار الحوزات والمـدارس العلمية إلى حـد أن المنطقة كان يوجـد فيها عدد من المجتهدين، رجع الأهالي في التقليد إليهم وكان في البلاد حركة ثقافية وأدبية متميزة شـهدت الكثير مـن التأليفات، ووجد فيها الكثير من الشـعراء والأدباء مما يحتاج له إلى حديث خاص به. واستمر هذا الحال إلى سنة ١٣٣١هـ.

في سنة ١٣٣١ هـ دخلت المنطقة تحت حكم الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود المؤسس للمملكة[١]. وهنا لا بد من تسجيل نقطة أشرنا إلى مثلها في ما سـبق وهي تحكـي عن الحالة الوطنية والدينية التي كان عليهـا أهـل المنطقة وعلماؤها، فإنـه يُنقل أن المنطقـة التي كان فيها حامية تركية ضعيفة، أُريد اسـتغلال أمرها من قِبَل البريطانيين فأرسلوا

(١) في مقالة لابن عمتنا الأسـتاذ عبد العلي آل سـيف نشرت في مجلة الواحة، بعددها رقم ٣٥، ذكر تفاصيل عن ذلك سـوف نأتي على ذكرها بعد قليل، ننشر جزءا منها يرتبط بهذا الموضوع. لإكمال الفائدة.

بارجـة حربية رابطت على الموانئ وعرضت الحماية على أهل المنطقة [1]، فـما كان مـن علمائها إلا أن وقفـوا الموقف الديني الطبيعـي في مثل هذه الموارد عند الاختيار بين من هو مسلم ومن هو كافر، فكان أن قام علماء القطيف ونواحيها بتسليمها إلى مندوب الملك عبد العزيز من دون قتال وكذا كان الحال في الأحساء حيث قام العلماء بتسليم البلاد ضمن إطار حفظ الحقوق والحريات الدينية.

كيف دخلت القطيف تحت حكم الملك عبد العزيز؟.

* كنـت أحب أن أتعرض إلى دخـول القطيف تحت حكم الملك عبد العزيز، غير أني وجدت أن ابن عمتنا الأسـتاذ عبد العلي آل سيف، قـد نشر شـيئا مفصـلا عن هـذا الموضوع في مجلـة الواحة، فآثـرت لتتم الفائدة أن أنقله هنا.

«كان تشـيُّعُ القطيف بعـد دخولها تحت الحكم السـعودي بقيادة الملـك الراحل عبد العزيز، واحدا من الأسـباب التي ثار لأجلها زعماء منظمـة الأخوان على الملك الراحل[2]، باعتبـار أنَّ المنظمة تتمثل تعاليم الشـيخ محمد بن عبد الوهاب الذي يرى الشيعة رافضة، والتشيع كفرا، فحـاول علماء نجـد التوفيق بين الملك وزعـماء المنظمة، فأصدروا فتوى شهيرة، جاء فيها:

«وأمـا الرافضـة: فأفتينا الإمـام أن يلزمهم البيعة على الإسـلام،

---

(١) شـكك الباحـث العوامـي في قيـام البريطانيـين بذلك. قائـلا إن طبيعـة العلاقة بين البريطانيـين والملك عبد العزيز لا تسـمح بقيام شيء مـن هذا القبيل، وأيد ذلك -في حوار مع الكاتب- بوجود بعض الوثائق في هذا الشأن.

(٢) الجزيـرة العربيـة، حافظ وهبـة، لجنة التأليـف والترجمة والنشر، القاهـرة، ١٣٨٧هـ ١٩٦٧م ط الرابعة، ص: ٢٩٦.

ويمنعهم من إظهار شعائر دينهم الباطل، وعلى الإمام، أيضا، أن يلزم نائبه على الأحساء أن يحضرهم عند الشيخ بن بشر، ويبايعوه على دين الله ورسوله وترك دعاء الصالحين من أهل البيت وغيرهم، وعلى ترك سائر البدع من اجتماعهم على مآتمهم، وغيرها مما يقيمون به شعائر مذهبهم الباطل، ويُمنعون من زيارة المشاهد، وكذلك يلزمون بالإجتماع على الصلوات الخمس، هم وغيرهم، في المساجد، ويرتب فيهم أئمة ومؤذنون ونواب من أهل السنة، ويلزمون بتعليم ثلاثة الأصول، وكذلك إن كان لهم محال مبنية لإقامة البدع تهدم، ويمنعون من إقامة البدع في المساجد وغيرها. ومن أبى قبول ذلك ينفى من بلاد المسلمين. وأمَّا الرافضة من أهل القطيف: فيلزم الإمام -أيَّده الله- الشيخ بن بشر أن يسافر ويلزمهم بما ذكرنا...»[1].

وبصدور هذه الفتوى بدأت القطيف مرحلة من الضيق، فقد قدم الشيخ بن بشر إلى القطيف فكان له لقاء بالعلماء في الدرويشية، وتمثل موقع إمارة القطيف وأميرها بن سويلم حينها، وكان من أبرز هؤلاء العلماء الخنيزيَّان العلامة الشيخ علي أبو الحسن والشيخ علي أبو عبد الكريم «قدس الله سرهما»، والعلامة السيد ماجد العوَّامي، وجرى حديث صريح من قبل هؤلاء الأعلام حول أسس الاعتقاد لدى الشيعة، وأنه لا يجانب التوحيد الصحيح حسب فهم أهل البيت، ففهم منهم ما لم يفهمه علماء نجد، وكان قدم معه أئمة لإقامة الجماعة من علماء نجد ليأمُّوا أهل القطيف في صلواتهم، وكانت فترة عصيبة أجبر الناس فيها على الحضور لأداء الصلوات بالإكراه.

---

(١) نفسه، ص ٢٩٥.

ويبـدو أن بـن بشر عـاد للرياض وقـدم تقريـره، بيـد أنَّ العلماء النجديـين لم يرضهم ذلك. فقد فرضت الجزيـة بعنوان الجهاد على أهل القطيـف، وكانـت على الفـرد وعلى الدابـة وعلى البيت وعـلى الدكان، وانطلقـت في تصاعـد في مضاعفاتهـا مرة واثنتين، باع النـاس مقتنياتهم الخاصـة، وبـاع النسـاء مصوغاتهن دفعا عن أنفسـهن وعـن أزواجهن وأولادهـن، ولعل حاجة الحكومة الناشـئة للمال للإنفـاق على المعارك التـي يقودها الملك ضد كل مـن لم يدخل في الطاعة، أو يعلن العصيان، هو دافعه لفرض هذه الضرائب.

المقتـدرون من أهل القطيف فرُّوا إلى البحرين، والضعفاء تواروا عن الأنظار خوفا من الملاحقة، ومن وقع في يد السلطات كلف بالعمل تسخيرا لقاء ما في ذمته.

إن وجـود هـذا العـدد الكبير من أعيـان القطيـف في البحرين لم يكـن خافيا، والبحرين حينها حاضرتها المنامة لا تملك إخفاء هذا العدد الكبـير من المهاجرين، وحيـث كان المتضرر الأكبر مـن تابعية القطيف للدولة السـعودية هو عبد علي بن منصور باشـا فجرى حديث للتدخل البريطاني إلاَّ أنَّ المندوب السـامي البريطـاني في البحرين طلب أن يعزز هـذا الطلب بخطاب من الحجة أبي عبد الكريم الخنيزي ﷺ ليتم هذا التدخل، وإدخال القطيف تحت التبعية البريطانية، إلاَّ أنَّ الشيخ، بحسه الوطنـي، رفض التبعيـة لبريطانيا، وأرسـل، بذلك، خطابـا للمندوب السـامي، ويقال إنَّ هذا الخطاب وقع في يـد الملك عبد العزيز فعرف له هذه الوطنية المتميزة.

ولعـل بريطانيا، بعد هذا الرد من الشـيخ الخنيزي، لم ترد تصعيد

الموقف مع الملك عبد العزيز فأوعزت إلى أحد شيوخ الدواسر بالتدخل، وبـدأ على أثر ذلـك المهاجرون بالعودة، ولكنها بما يشـبه المظاهرة تحدِّيا لابن سويلم أمير القطيف حينها، وتلاه ما يشبه العصيان المدني، وكانت العوامية وسيهات تتزعمان هذا العصيان.

ويبدو أن زعماء القطيف اتفقوا على إرسـال وفد لمقابلة الملك عبد العزيـز للتفـاوض معه فيـما يهم أمر القطيـف فوقع الإختيـار على الوفد المكون من الحاج أحمد الخنيزي والحاج رضي العلقم والحاج محمد حسين الفرج، رحمهم الله، وبزعامة العلامة الشيخ منصور آل سيف ﭬ.

وكانت المشـكلة التي اعترضت هذا الوفد هو الالتفاف على أمير المنطقة الشرقية حينها بن جلوي لما عرف عنه من قسوة وجدية في تنفيذ الأوامـر، فكان لا يقبل اعتـذارا، أو تأخيرا عن الإمتثال لأوامر الدولة، وإنما يعتبره اسـتخفافًا بالسلطة، وعدم طاعة الولاة، واتفق الجميع على الإبتعاد عن طريق الأحسـاء، مقر الإمارة وقتها، فلم يكن إلا السفر إلى البحريـن، ومنهـا إلى بوبمي بالهنـد ثم إلى جدة بالباخـرة برفقة الحجاج الهنـود. بقي الوفد قرابة سـتة أشـهر فكانـت مفاوضات شـاقة بمنتهى الصراحة، والشـفافية وطلـب الوفد من الملك أن يقـرر موقفه من أهل القطيف مسـلمون هم أم كفـار كما تراه الفتـوى؟ وإلا فكيف تعتبرهم الدولـة مسـلمين، وتحاسـبهم على زكـوات أموالهم، وفي نفـس الوقت تعتبرهم غير مسلمين وتأخذ عليهم الجزية؟.

إن حنكة الملك عبد العزيز السياسية أنهت هذه المسألة، وأقر بأنَّ أهل القطيف مسـلمون، لاسـيما وهو يعلم أن دولة كبرى هي إيران لها ثقل في العالم الإسـلامي والدولي دستورها ينص على أن التشيع مذهبها

الرسـمي، وحجاجها يفـدون إلى المملكة بالآلاف لأداء مناسـك الحج كل عام، عدا عن شـيعة الهند والباكستان ولبنان، وهل يصح الحج لغير مسلم؟.

وبدأت تباشـير انقشـاع هذه المعضلة الكبرى بالانفراج، وسـلم الملك الشـيخ منصور، والوفد المرافق له، رسالة مختومة لأمير الأحساء، ولكن الشـيخ أبى اسـتلامها إلاَّ مفتوحة، وقال قولته المشهورة إننا لسنا سـعاة بريـد، إنـما نحن نمثـل بلدا وضـع ثقته فينـا، فإمَّـا أن نعلم ما في الخطاب وإلا فنحن باقون حتى ينتهي طلبنا، واستجاب الملك لموقفهم، وأقرأهـم الكتـاب، وكان فيـه رفع كل أنـواع ضريبة الجهـاد، وطلبوه، أيضـا، في الزكاة المتاخرة على الناس لسـنين لم يدفعوها لضيق ذات اليد فاجابهـم، وبذلك بدا الوفد رحلة العودة، وبرزت لهم المشـكلة الأولى: المرور بالأحساء، فصمموا على سلوك طريق لا يمر بالأحساء.

اسـتاجر الوفد دليلا من المرَّة، وهم أهل معرفة بطرق الصحراء، عـلى أن لا يمـر بهم بالأحسـاء، وانطلـق الركب، ولكنه ضـل الطريق، وكادوا أن يموتوا من الجوع والعطش، وما وصلوا إلى الجبيل إلاَّ بشـق الأنفـس، وكانـت معاناتهـم كبيرة جـدًّا، فقـد أنهكهم الجـوع والمرض والتعـب والسـهر والخـوف مـن الطريـق وما فيـه من وحـوش ضارية وبوصولهم استُقبِلوا استقبالا حارًّا أنساهم طول عنائهم)[1].

(١) آل سيف: عبد العلي، مجلة الواحة، عدد: ٣٥.



من مشاكل النهوض في مجتمعنا الشيعي

يمتلك المجتمع الشيعي حسب الكثير من المفكرين مؤهلات النجاح والتفوق والانطلاق، غير أن الواقع القائم يؤكد وجود معيقات تمنعه عن ذلك أو تؤخره.. فما تلك المشكلات والمعيقات المانعة له عن الانطلاق؟

وللاجابة عن السؤال نقدم مقدمة من نقطتين:

النقطة الأولى: المجتمعات البشرية تحتوي على مشاكل متشابهة في الجملة، لكن تختص بعض المجتمعات بمشاكل خاصة بها، بل أحيانا نفس المشكلة المشتركة في مجتمعين يكون لها عوامل مختلفة، فعلى سبيل المثال: البطالة ليست مشكلة خاصة وإنما هي مشكلة عامة فهي موجودة في أكثر المجتمعات في هذا الزمان: المتقدمة منها والمجتمعات النامية، برغم اختلاف الأسباب. فقد تكون أسباب البطالة في البلاد المتقدمة مكننة الإنتاج والاعتماد على الآلات والكمبيوتر، بينما هي في المجتمعات النامية عدم وجود الفرص الكافية أو سوء الإدارة للثروة.. وهكذا فإنه برغم أن المشكلة واحدة إلا أن الأسباب مختلفة.

ولهذا لا بد من النظر إلى المشكلة ضمن إطارها الخاص في المجتمع المعين الذي يراد البحث عنه.

النقطة الثانية: عندما نتحدث عن المشاكل لابد أن نفكر في الجذور

و المناشـئ و الأسـباب فالكثير من الناس يلاحظون الظواهر ويقلقون من الآثار. مثلا: يرون شـابا قد أخطأ في طريق الاسـتقامة فيقوم بأفعال خارجة عن العرف الديني، كثير من الناس يقلقون من هذه المظاهر ولا يرتاحـون لها وهذا قلق من الآثار ومـن المفروض أن نفكر في جذر هذه المشـكلة فلا بد أن نتسـاءل لماذا يتصرف هذا الشـاب بتلك الطريقة وما الذي يدعوه إلى هذا السلوك ويدفعه إلى هذا التصرف؟.

وعـلى سـبيل المثال مجتمعنا التابع لأهـل البيت عليهم السلام يمتلك من الإمكانيـات الـشيء الكثير ويحتوي عـلى مقومات الانطـلاق والتقدم، لنتساءل لماذا لم يتقدم؟ لماذا لم يرتقِ بالنحو المطلوب؟ إن مما يثير التساؤل أن ترى طائرة معدة للطيران بشكل كامل وقائدها موجود والمدرج معد ومهيـأ والحاجـة للانطلاق مُلِحَّة.. ومع ذلك لا تطير، لابد أن نتسـاءل لمـاذا لا تطير مع وجـود كل مقومات الطيران والانطـلاق؟ ومع انتفاء الموانـع عنـه.. ما الذي يمنعها مـن الطيران والتحليـق؟ هل هناك شيء يثقلها؟.

إن هـذا المجتمع يمتلك فكر أهـل البيت عليهم السلام وهو فكر حيوي متفاعـل، ويمتلـك من القـدوات التاريخيـة الرائعة العدد الجـم، كما أنه يمتلـك الحـماس الدينـي المتفاعل في نفوس شـبابه وشـاباته، ولا يفتقد الإمكانات المادية اللازمة.. فلماذا يبقى رهين التخلف؟.

لماذا نتعرض إلى هذه المشاكل؟.

سـوف يتضـح أن هنـاك مناهج متعـددة في التعامل مع المشـاكل الاجتماعيـة وأن طريقـة التعامـل مع هذه المشـاكل، تؤثـر في أن يتحرك الملاحـظ لحلها، وتغييرها أو أنه يتخذها مبررا للتقاعس، والكسـل عن

الدخول إلى الساحة الاجتماعية.

إن الغـرض من التعرض إليها، كشـفها وبيان شيء من أسـبابها، والتفكـير في حلـول لها، كيلا تعيق المجتمع عـن حركته، والعاملين عن نشاطهم..

أما مناهج التعامل مع تلك المشـاكل، فيمكن لنا أن نذكر منها ما يلي:

المنهـج الأول: التسـتر والإخفـاء: يقـول أصحـاب هـذا المنهج والذيـن يوجـدون في أكثـر البـلاد الإسـلامية على مسـتوى الـدول أو المجتمعات والطوائف: يجب التسـتر على المشاكل الحاصلة في المجتمع، وتجنـب تداولهـا والحديث فيهـا، وذلك لأن الحديث عن هذه المشـاكل والاعـتراف بوجودها يضعـف المجتمع.فلا بد من إبـراز المجتمع أمام الآخرين على أنه قوي متماسـك لا مدخل للمشـاكل فيه، ولا يوجد فيه إلا كل خير..

وربـما يعلل هؤلاء مثل هذا التوجه بأن مفاد آيات القرآن الكريم هو التسـتر على المشاكل وعدم إظهارها..كما يعتقد أصحاب هذا المنهج أن إظهار المشـاكل عبر الحديث عنها يؤدي إلى أن يشـمت العدو فينا.. بينما المفروض أن نري الأعداء قوة جبهتنا الداخلية وتماسكها.

ومـن الواضـح أن هذا المنهج غـير صحيح، فإن إخفاء المشـكلة والتسـتر عليهـا لا ينهيها، وهو أشـبه بالإغماض عن المـرض، لفترة من الزمـان حتـى إذا اسـتفحل لم يكن ممكنا التسـتر عليه، ولاسـتفحاله لا يمكن علاجه أحيانا.

الطريف أن الكثير ممن يرون هذا المنهج، ويعملون به عندما تبدو المشكلة فاقعة أمامهم بكل قوتها يتساءلون: أين كانت هذه المشاكل ولماذا وصل مجتمعنا إلى هذا الحد! وجوابه أن المشاكل كانت موجودة، ولكن كان يتم التغاضي عنها، والتستر على وجودها، حتى وصلت حدا لا يمكن إخفاؤها معه!

المنهج الثاني: التهويل والتهريج السلبي: هناك قسم من الناس يعتمدون المبالغة والتهريج السلبي وتضخيم المشاكل، بنحو غير علمي، وإذا أردت أن تنظر إلى هذه الحالة فاسأل شخصا عن الأوضاع فإنه يجيبك بنظرة سلبية وسوداوية بالنسبة لكل شيء.فلا يوجد عنده في المجتمع شيء حسن، فالكبار جاهلون والشباب متهورون، والنساء متهتكات..والعلماء مصلحيون أو قاعدون، والتجار بخلاء وغير باذلين..وهكذا.

إنه لا يرى في المجتمع سوى بقع السواد، وإن لم تكن فهو يخلقها في ذهنه من خلال ملاحظات مبتسرة وسريعة لبعض المظاهر التي لا تشكل ظاهرة.

وهذا النهج مع الأسف يوجد في فئات كثيرة.والحقيقة أن له خلفية نفسية، ولا يُتصور أن هذا المنهج يتبعه هؤلاء الناس مجانا ومن غير وعي، وإنما لأنه يصل في نهاية الأمر إلى تبرير الكسل والتقاعس عند نفس الشخص، بحجة أن العمل لا ينفع ما دام المجتمع وصل إلى هذه الحالة، وما دام من يُعتمد عليهم قد أصبحوا بهذا النحو.

وهذا المنهج غير صحيح لأنه يرى نصف الحقيقة أو ربعها والإخبار عنها كأنها الحقيقة كاملة، وربما اختلق أصحابه بعض الصور

من غير واقع لها في المجتمع.

المنهج الثالث: منهج القرآن الكريم في معالجة المشاكل، ونعرض هنا إلى ذكر بعض ميزاته بنحو عاجل:

منهج منصف: فهو يسلط الضوء على كامل صورة المشهد، لكي يأخذ منها ما يعتبر به قارئ القرآن، ويتعظ به، فإذا كانت هناك صورة حسنة حتى من المخالفين للأمة الإسلامية فهو يذكرها ويعطي منهجا لأبناء المسلمين أن يكونوا منصفين مقسطين في التقييم والحكم حتى مع الأعداء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾[1].

وإذا كانت هناك صور غير حسنة، ومشاكل موجودة لدى أبناء الأمة المسلمين فإنه لا يتأخر عن ذكرها، حتى لو قرأها غير المسلمين (وشمتوا بهم)!! فإن المهمة القصوى من ذكر تلك المشاكل أن ينتفع المسلمون بالتجارب، ويجتنبوا مواضع الخطأ، وهذا الهدف يهون عنده ما سواه.

منهج واقعي: ينفذ إلى جذور المشكلة ولا يكتفي بعرض آثارها، فهو في أثناء حديثه عن تجربة المسلمين في صراعهم مع الكفار يقول: ﴿ لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ ﴾[2].

(١) سورة المائدة، آية: ٨.

(٢) سورة التوبة، آية: ٢٥.

ففـي حوالي ثمانـين واقعة انتـصر فيها المسـلمون عـلى أعدائهم، لكنهـم حـين أعجبتهم كثرتهم وقـلَّ توكلهم على الله كانـت النتيجة أن انهزموا. فهنا يحذر من أساس المشكلة وهو الإعجاب بالكثرة.

وفي سـورة آل عمـران نجد الكثير مـن الآيات التـي تتعرض إلى مشـاكل المواجهـة، والصفات السـيئة التي توجد لدى بعض المسـلمين وتُنتـج الهزيمـة والتأخر. يقـول تعـالى: ﴿ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾(١).

وينفذ القرآن إلى بواطن النفوس لكي يكشفها على الملأ، فيقول:

- ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾(٢).

- ﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴾(٣).

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٥٣/ ١٥٤.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٦٥.

(٣) سورة النساء، آية: ٧٢.

وهـذا المنهج أشـبه بمنهـج الطبيب الـذي يتعمق في فهـم الداء، ويدقق في تشـخيصه تدقيقا تاما ثم يصف الدواء بناء عليه، من دون أن يتستر عليه، ولا أن يبالغ في تضخيم آثاره، ويهوّل منه.ويخبر المريض (أو من يعنيه أمره) بحقيقة مرض المريض.

ولو نظرنا إلى كلام أهل البيت عليهم السلام لوجدناهم لا يفارقون هذا المنهـج في معالجة المشـاكل الاجتماعيـة.. فكثيرا ما تحـدث أمير المؤمنين عليه السلام مـع أصحابـه مبينا لهـم نقاط ضعفهـم «ألا وإنـه ليظهرن هؤلاء القـوم عليكم، ليس لأنهم أولى بالحق منكم،ولكن لإسراعهم إلى باطل صاحبهم وإبطائكم حقي»[1]. فمجرد كون الإنسان على الحق لا يجعله منتصرا بالضرورة، فهاهم أهل الشـام ليسوا على حق ولكن لديهم ميزة تجعلهـم متفوقين وهـي طاعتهم أميرهـم بالرغم من أنه عـلى الباطل.. «صاحبكـم يطيـع الله وأنتـم تعصونه. وصاحب أهل الشـام يعصي الله ويطيعونه»[2].

وعندمـا يتعجـب البعـض متسـائلين عـن سـبب هزيمـة جيش الإمام الحسـن عليه السلام أمـام معاويـة، ولجوئه إلى المهادنـة، يقول عليه السلام: «أمـا والله مـا ثنانا عـن قتال أهل الشـام ذلة ولا قلة ولكـن كنا نقاتلهم بالسـلامة والصبر، فشِـيب (خُلط) السـلامة بالعداوة، والصبر بالجزع وكنتـم تتوجهون معنا ودينكم أمام دنياكم، وقد أصبحتم الآن ودنياكم أمـام دينكم وكنا لكم وكنتـم لنا، وقد صرتم اليوم علينا»[3]. فاختلاف الدوافع أدى إلى الهزيمة.

---

(١) نهج البلاغة الخطبة ٩٧

(٢) نهج البلاغة، خطب الإمام علي عليه السلام، ج١، ص ١٨٨.

(٣) بحار الأنوار، العلامة المجلسي: ج٤٤، ص٢١.

والإمـام الحسـين عليه السلام أيضا قـد وضع الأمة في ذلـك الوقت أمام مشكلتها وصرح لها بأن المشكلة هي أن «الناس عبيد الدنيا والدين لعق على ألسنتهم يحوطونه ما درت معايشهم فإذا محصوا بالبلاء قل الديانون[1]».

١ – الشيعة بين واقع الأقلية وثقافة الأقلية

يندر أن يخلو مجتمع مـن المجتمعات الحديثة من وجود تنوعات، (عرقيـة كالزنـوج وذوي الأصول الصينية في أمريـكا وقومية كالأكراد والأمازيـغ والبربـر في البـلاد العربيـة ودينيـة كالمسـيحيين واليهود في المجتمعات الإسـلامية، والمسلمين في البلاد الأوربية ومذهبية كالتشيع في بعض البلاد والتسنن في بعضها الآخر..).

قـد تتقارب هذه التنوعات عـددا وهو نادر، وقد تختلف، فتكون إحداها هي الأكثر من غيرها. فتكون منشأ لأن تعد واحدة هي الأكثرية والأخرى الأقلية بالنسبة لها.

وجود هذه التنوعات في المجتمعات الحديثة راجع في الغالب إلى تأسيسـها كإطار واحد ذلك أن مكونـات هذه المجتمعات قد ضُمت[2] ضمن عمل عسـكري، أو سـياسي، أو توافق اجتماعي، فلم تكن هناك قبيلة واحدة أو أسرة، وإنـما مناطق، وتكوينات.. فوجود أقلية وأكثرية في مجتمعٍ من المجتمعات الحديثة ليس شيئا نشازا.

في تقرير لمنظمة اليونسكو بعنوان (التنوع الخلاق)[3] صدر أواخر

---

(١) المصدر السابق ١٩٥.

(٢) لعل من أوضح الأمثلة على هذا التعدد ما يلاحظ في المجتمع العراقي، ففيه المسلمون والمسيحيون واليهود والصابئة واليزيديون، وفيه العرب والأكراد والتركمان والشبك، والكلدانيون والآشوريون.. وفي المسلمين الشيعة والسنة بمختلف مذاهبهم..

(٣) أعلنـت منظمـة اليونسـكو تكريس عشر سـنوات من أجل دراسـة موضـوع التنوع

التسـعينات، ذكر وجود (١٠) آلاف أقلية عرقية ودينية وإثنية ومذهبية في العالم.. ورأى أن مثل هذا ينفع العالم بتنوعه.

وجـود الأقليـات والتنوعـات ليس مصدر مشـكلة، حتـى يطالب البعـض مـن الأكثرية بأن تـذوب الأقليـات في الأكثرية ثقافة وممارسـات وشـخصية ويحسـب هؤلاء بأن ذلـك كفيل بإنهاء المشـكلة. بـل بالعكس وجود الأقليات ليس مصدر مشـكلة بـل هو مصدر خلاقية وثراء وجمال، إضافـة إلى أنـه لا يمكن إنهاء مشـكلة الأقليـات والتنوعات لـو فرضناها مشـكلة، بالذوبان.. إذ هـو غير ممكن وغير صحيح. وقـد دلت محاولات التذويـب المختلفة سـواء المبرمجة ثقافيا أو العنيفة عسـكريا، على أن ذوبان هذه التنوعات والأقليات غير ممكن وإنما هو يتراجع عن السطح الظاهري، لكـي يتعمـق في داخل هذه الأقليـات ويمد جذوره إلى الأسـفل في حركة متحدية لمحاولات التذويب.. والأمثلة إذا كثرت أغنانا ذلك عن ذكرها.

المشـكلة حقيقة هي تعامـل المجموعات[1] القوميـة أو الدينية أو المذهبية الكبيرة مع تلك التي هي أقل منها بعين الاستعلاء، والإقصاء، مـن جهة.. وشـعور المجموعـات القليلة عددا أنها يجـب أن تكون أقل حظـا في الوطـن أو في الحقوق والامتيازات. وأن مـا يمارس تجاهها من استعلاء وإقصاء هو أمر طبيعي لقلتها!! واستفادة السلطات من اللعب

الثقـافي، فيما أسـمته «بالعقد الثقافي» من العـام ١٩٩٧م/ ١٩٨٨م. ثم جاءت نتيجة ذلـك الجهد المتواصل في مجلد كبير تحت عنوان: تنوعنا الخلاق، تقرير اللجنة العالمية للثقافة والتنمية. وقد تمت ترجمة هذا العمل إلى العربية تحت عنوان: (التنوع البشري الخلاق). وقد قام بالترجمة والإصدار المجلس الأعلى للثقافة في مصر ضمن المشروع القومي للترجمة. عن الوطن السعودية ٢/ ٤/ ٢٠٠٥م.

(١) اقترح البعض من الباحثين أن يستـخدم مصطلح المجموعات القومية أو الدينية وأن تكون بديل لفظ الاقليات لما يحمل هذا اللفظ من شعور استعلائي أو اقصائي.

على هذا الحبل بين الطرفين!

قرآنيا: القلة ليست شتيمة:

سوف نرى أن القرآن الكريم والنصوص الدينية لا ترى القلة عيبا، ولا الكثرة ميزة، بل ربما كان العكس.. إذا اتبعت القلة الهدى، وحالفت الأكثرية الباطل. بل حتى الأكثرية لو كانت على الحق فهذا لا يعطيها الميزة لأنها أكثرية وإنما لأنها أهل الحق.

ولم تكن الأكثرية أيضا مقياسا للحق [1].. فلا يمكن الاستدلال على كون جهة أهل الحق لأنهم أكثر، والجهة الأخرى بأنهم أهل باطل لأنهم أقل! ولا أن الكثرة يجب أن يأخذوا كل شيء لأنهم كثرة، والقلة يحرمون لأنهم أقل!.

بل ربما مُدحت القلة وذمت الكثرة لبعض الجهات:

- ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾[2].

---

(١) بالطبع هذا لا يخالف ما نعتقده ويعتقده الكثيرون من أن أكثرية الآراء طريق من طرق إدارة المجتمع، وأن مشاورة الناس والأخذ بما تنتهي إليه آراؤهم سبيل قد اعتمد من قبل الدين بمقتضى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ و ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ أو ما روي من أنه لا تجتمع أمتي على باطل لو تم سندا..فإنما ترتبط هذه الآيات بالأمور النظامية والسياسية في المجتمع دون أن ترتبط بالعقائد والأفكار.إذ لا يصح أن يقال أن عدالة الله صحيحة لأن أكثرية الآراء مع هذه الفكرة!. أو أن الدين المسيحي صحيح لأن أكثرية الناس في عالمنا هم مسيحيون!.

وكذلك لا يخالف ما تذهب إليه بعض المذاهب الإسلامية من أن الاجماع بمعنى اجتماع الامة أحد الأدلة إلى الحكم الشرعي، ويستندون في ذلك على ما رووه عن رسول الله ﷺ من أنه «لَا تَجْتَمِعُ أُمَّتِي عَلَى ضَلَالَةٍ» فهو بالإضافة إلى المناقشات الموجودة في أدلته، وفي إمكان تحققه خارج عما نتحدث عنه، ففرق بين الأكثرية والكثرة وبين إجماع الأمة!.

(٢) المائدة: من الآية٤٩.

- ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [1].

وفي المقابل هناك مدح للأقلية، والقلة:

- ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [2].

- ﴿فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ﴾ [3].

- ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [4].

- ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [5].

ونحن هنا لا نريد أن نثبت أن الأكثرية هي بالضرورة خاطئة، كلا، ولكن نقول: إن الأقلية ليس شتيمة، ولا يبرر ذلك أن تكون مضطهدة.

فما دامت القلة ليست مشكلة.. فما هي المشكلة؟.

المشكلة هي ذات ثلاثة أضلاع:

ضلع منها يرتبط بالأكثرية، وهو اعتقادها بأن كثرة عددها يعطيها حق العلو على غيرها من مكونات المجتمع، ومصادرة حقوقه.

وهذا ما نراه في أكثر من بلد مسـلم وغير مسلم، حيث تحاول فئة

---

(١) المائدة:٦٢.
(٢) هود: من الآية ٤٠.
(٣) البقرة: من الآية ٢٤٩.
(٤) البقرة: من الآية ٢٤٩.
(٥) البقرة: من الآية ٢٤٦.

أن تثبت بأنها الأكثرية، وربما لجأت إلى التزوير في التعداد والإحصاء، وذلك لأنها تزعم أن اتصافها بصفة الأكثرية يعطيها حقا مضاعفا! والكلام ليس في الحق الكمي فهو طبيعي لو كان لجهة كثرة غالبة، ولكن الكلام في الحق النوعي.

وضلع منها يرتبط بالسلطات السياسية التي تحاول أن تستفيد من هذه الحالة، وتقمع الأقلية بالأكثرية، وتخيف الأكثرية من نهوض الأقلية وهكذا تصبح الملجأ للجميع والحَكَم وتسيطر عليهم بهذه الطريقة..

والضلع الثالث: يرتبط بالأقلية وهو ثقافتها التي تتكرس في الأجيال بفعل التعليم الخاص أو الأمثال الشعبية، أو اجترار تاريخ المعاناة والمشاكل، الذي تتحول أحداثه السلبية بالتدريج إلى مسلمات تفعل فعلها في عقل الأقليات. ولنتحدث عن هذا الضلع الثالث.

المشكلة: الثقافة الأقلاوية[1]:

ماذا نعني بالثقافة؟ الثقافة: على الرغم من تعدد تعريفاتها إلا أنه يمكن تعريفها بأنها منظومة الأفكار التي تؤثر في تشكيل السلوك اليومي للإنسان، والخريطة الذهنية التي تحدد مسار الفرد في حياته اليومية.

ذلك أن حركة الإنسان في منطلقاته وأهدافه بل في طريقة حياته خاضعة في الغالب لثقافته. فصاحب الثقافة العبثية في العادة لا يتحرك في سلوكه وحياته بنحو جدي وهادف. وغير المؤمن ينـدر أن تُحركه في أعماله قضايا الثواب والعقاب والموعد الأخروي. وربما يكون لهذا السبب وجدنا موقع الأصول الاعتقادية وهي التي تشكل رؤية

(١) سوف نستفيد في هذا المصطلح من الأخ الدكتور توفيق السيف.

الإنسان لحياته من حيث المبدأ والمنتهى وما بينهما من السعي، أكبر أهمية مـن موقع الفروع العملية، والعبادات مع أهميتها والفقه. ووجدنا أيضا أن التفاضل في بعض الأحاديث قد رتب على أسـاس المعرفة[1]، ويشير إلى موقـع الثقافة (والمعرفة) كلام أمـير المؤمنين علي عليه السلام لكميل: « **مَا مِـنْ حَرَكَـةٍ إِلَّا وَ أَنْتَ مُحْتَـاجٌ فِيهَا إِلَى مَعْرِفَةٍ** »[2] مشـيرا إلى أثر الثقافة في حركة الإنسان الحياتية.

وتختلـف هـذه عـن العلـم والتخصـص فمـن الممكـن أن تـرى متخصصـين في مجـال واحد كالطب وبمسـتوى واحـد ولكن اختلاف حركتهـما في المجتمـع كبير وذلك راجع إلى ثقافتهما. كـما يمكن أن يتأثر بنمط ثقافي واحد أفراد متعددو المستويات العلمية التخصصية.

فالشـعور الأقلاوي والمنعزل يمكـن أن يؤثر في حامل الدكتوراه كـما يؤثر في الأمي. وفي عالم الدين.. لذلك قد تجد مجتمعا بكامله يعيش ثقافة معينة مع اختلاف مستوياته التخصصية.

والثقافـة الأقلاوية تعني أن يعيش الفـرد أو المجتمع وهو يتمثل حالة دائمة، هي أنه (من الأقلية الفلانية)، يعيش هذا الشـعور في داخل ذاتـه، وفي علاقاته مع الآخرين، وفي تعاطيه مـع حقوقه، وفي نظرته إلى وطنه وهكذا.

(١) فعن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: « **أَفْضَلُكُمْ إِيمَاناً أَفْضَلُكُمْ مَعْرِفَة** »، وعن الإمام الصادق عليه السلام: « .. **إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ بَعْضُهُمْ أَفْضَلُ مِنْ بَعْضٍ وَبَعْضُكُمْ أَكْثَرُ صَلَاةً مِنْ بَعْضٍ وَبَعْضُكُمْ أَكْثَرُ حَجّاً مِنْ بَعْضٍ وَبَعْضُكُمْ أَكْثَرُ صَدَقَةً مِنْ بَعْضٍ وَبَعْضُكُمْ أَكْثَرُ صِيَاماً مِنْ بَعْضٍ وَأَفْضَلُكُمْ أَفْضَلُكُمْ مَعْرِفَةً** » راجع ميزان الحكمة: ج٣، ص١٨٧٠.

(٢) بحار الأنوار: ج٧٤، ص٢٦٨.

أبعاد هذه المشكلة:

١ – الشعور تجاه الذات: ينتج عن الثقافة الأقلاوية هضم للذات وسماح للآخرين بظلمها، فصاحب هذه الثقافة يقبل بالحد الأدنى من حقوقه، ويتعامل مع غاصبي حقه على أن ذلك شيء طبيعي.

والغريب أننا قد نلاحظ أن الشيعة في أماكن هم فيها أكثرية عددية لكن ثقافتهم أقلاوية، ولو أعطي هؤلاء جزءا من حقهم لعد ذلك مكرمة! مثلا لو تعامل مع الشخص رئيسه في العمل بنحو منصف ولم يجحف بحقه، في راتبه أو ترقياته، أو غير ذلك فإنه يعتبر ذلك نعمة استثنائية..مع أن ذلك الرئيس إنما يؤدي وظيفته!

ينتج عنه أيضا أنه لا يطالب بحقه العام السياسي، بل حتى الشخصي مثل الترقية في العمل، فلو فصل أو أُبعد لا يرى أن من حقه الاحتجاج، بل إنه ينسحب بهدوء حتى لا تتضاعف المشكلة عليه [1]! وربما يكون هذا ناتجا عن قصة أو قصص حدث فيها أن انقلب المظلوم ظالما والظالم مظلوما على أثر قضاء طائفي.. لكن تلك القصص قد تحولت إلى حقائق وقواعد في وعي المجتمع وكأنها سنن لا تقبل التغيير، ولا يؤثر فيها الزمان. ويتم تناقل تلك القصص حيث تؤثر في الأجيال وتكرس فيهم الحالة التي كانت لدى أوائلهم!!.

---

(١) وهذا يذكر بقصة جحا الذي هرب من الحمال سارق المتاع لكيلا يطالب جحا بأجرة المتاع المسروق!! فقد ذكروا أن جحا ذهب إلى السوق لكي يشتري لأهله حوائج ولما كانت كثيرة فقد استأجر حمالا يحملها في مقابل عدة دراهم، غير أن الحمال استفاد من فرصة ازدحام السوق وهرب بالحوائج التي كانت تساوي دنانير، ولما وصل جحا إلى منزله والتفت إلى الخلف ولم يجد الحمال رجع إلى السوق ليعيد شراء تلك الحوائج، وفي هذه الأثناء رأى الحمال السارق من بعيد، فاختفى جحا منه، لكيلا يطالبه الحمال بأجرة الحمالة!! بدلا من أن يقبض جحا عليه لكي يأخذ منه تلك الحوائج!.

٢- النظر إلى الحياة مع الآخرين لا على أساس الشراكة في المكان والمصالح والخيرات، وإنما شعور القدر المفروض عليه، وأنه لا بد أن يتكيف مع هذا القدر المفروض! كأنه نوع من الاكتئاب السياسي.

وينتج عن كل ذلك حالة الانكماش والانعزال، طمعا في المحافظة على الذات، ويحدث شعور الغربة في الوطن.

٣- الشعور تجاه الغير، بأنهم كتلة واحدة وأنهم يعملون ضده وضد جماعته! فيستشعر الضعف أكثر.. فالغرب الكافر ضده، وسائر الفرق عليه، والوضع السياسي يتعقبه..الخ، بينما حقيقة الأمر أن العالم هو عالم المصالح، متى التقت مصلحة هذا الطرف مع ذلك الطرف تحالفا.

وتتضخم عند هؤلاء نظرية المؤامرة.. وأن الأحداث تجري على أساس قد أعد سلفا من قبل فئات معينة، وما يتم من تفاصيل في السياسة والمجتمع إنما هو على أساس برنامج قام به الغير.. فبعض الإسلاميين يرى أن البريطانيين هم الذي برمجوا حركة السياسة منذ عهد بعيد وأن ما يجري من ثورة أو هدوء، ومن حركة أو سكون هو على أساس ذلك المخطط. والبعض الآخر يرى أن الامريكان هم الذي برمجوا للعالم ما يحدث فيه، حتى تفجير أبراجهم في سبتمبر إنما هو بفعلهم وببرنامجهم، وهكذا.

بل إن البعض يوظف التاريخ لهذه الجهة، وأن التآمر تم على الشيعة من يوم السقيفة! ولا يزال مستمرا منذ ذلك اليوم وبفعل ذلك التخطيط!! والبعض يقنع بما هو جديد، فهناك بروتوكولات لحكماء صهيون والعالم يسير على طبقها!! وهناك حكومة العالم الخفية! وما عدا

ذلك فهم (أحجار على رقعة الشطرنج!!).وهذا كله ناشيء من الإيمان بنظرية المؤامرة.

بينما القضية لا ترتبط بهذا الجانب وإنما القضية تلاقي مصالح الجماعات، فحين التقت مصلحة الأمريكيين والأوربيين في البوسنة والهرسك مع المسلمين، تحالفوا ضد المسيحيين الصرب، ودخلوا حربا ضدهم وساعدوا المسلمين في إقامة جمهورية خاصة بهم.. وهكذا..

كيف نتجاوز هذه الثقافة، وهذا الشعور؟.

١- إحلال ثقافة المواطنة والاشتراك على هذا الأساس مع باقي المكونات الاجتماعية محل التمايز على أساس العدد أو الدين أو المذهب. ولا نعني بذلك أن تتنكر الأقليات لدينها أو مذهبها أو وجودها الخاص فهذا غير ممكن وغير صحيح. وإنما نقصد بذلك أن لا يكون ذلك هو محدد العلاقة بين هذه الفئات. بحيث نتعارف مع شريكنا في المذهب أو الدين أو القومية ونتناكر ونقاطع من لم يكن كذلك وإن كان جار بيتنا، وشريك وطننا.

إن المطلوب هو أن تحتفظ هذه الفئات بعنوانها الخاص وبثقافتها، وتتعامل مع سائر الفئات والمكونات الاجتماعية على أساس الشراكة في الوطن، وأنهم في سفينة واحدة يتقاسمون فيها الخير، ويجري عليهم جميعا نفس الخطر!.

المطلوب هو أن يشعر الجميع بأن هذا الوطن وطنهم، وأن نسبتهم إلى مركزه هي نفس النسبة، وأن لا أحد أقرب منهم إلى المركز من الآخر بسبب أن مذهبه مختلف أو لغته مغايرة أو دينه.

٢- الالتفـات إلى ما تملكـه الأقليات من ميزة ثقافية والعمل على تكريسها والانطلاق منها لخدمة المجتمع والوطن ككل، وذلك أن هناك أقليات لا تمتلك ثقافة تستطيع عرضها، وهي بهذا لا تستطيع أن تمارس على مسـتوى العالم دورا يتجـاوز حجمها. بينما تمتلـك بعض الأقليات كالشيعة مثلا ثقافة رائدة تستطيع أن تقدم الكثير للعالم..ولكن المشكلة في إيصال هذه الثقافة للدنيا..

مثـال للمقارنة: بلغ عـدد الكتب المؤلفة عن هتلـر القائد الألماني المعروف من سـنة ١٩٤٥م إلى عام ٢٠٠٠م، (٥٥٠٠٠) خمسة وخمسين ألـف كتاب!! بمعدل ١٠٠٠ كتاب في كل سـنة كـما نقلت ذلك جريدة الوفاق.. هل كتبنا نحن المسلمين عن رسول الله هذا العدد؟ أو عن أمير المؤمنين؟ أو عن نهضة الحسين[1].

إن قيام الأقليات بعرض ثقافتها من شأنه أن يثري الجو الفكري، وأن يصنع حراكا طيبا يمكن المجتمع من انتخاب الفكر الأفضل.

٣- الاهتمام بالتفوق النوعي: فلا ينبغي الاكتفاء بنصف الأشـياء.. والتوقـف، في المجـال الطبـي، الهندسي، التقنـي، التجـاري، إذا قال ذلك الشاعر (لنا الصدر دون العالمين أو القبر) مفتخرا، فينبغي أن يقول الواحد منـا ذلك من موقع النشـاط والهمـة. وهذا ما صنعته بعـض الأقليات فقد ذكـروا أن الأمريكيـين مـن أصـل آسـيوي كانـت نسـبتهم في أمريكا ٢٪ فقط.. لكن رؤساءهم قرروا أن يكون لهم دور كبير في الساحة الأمريكية، فخططـوا لكـي يتفوقوا في التعليم والبحث العلمي، فأصبحوا يسـيطرون

(١) ذكـر الباحـث الدكتور عبد الجبـار الرفاعي أن عدد ما كتب عـن الأئمة الاثني عشر جميعهم، لا يتجاوز الخمسة عشر ألف كتاب.

الآن على ٢٠٪ من التعليم العالي ومراكز البحوث العلمية!

وهذا يعني أنهم قد تحولوا نوعيا إلى عشرة أضعاف عددهم، ومن المثير للانتباه أن نفس هذه النسبة قد طلبها القرآن الكريم من المسلمين، أن يتجاوزوا قلتهم العددية بتفوقهم النوعي حتى يصبح الواحد منهم بمقدار عشرة من غيرهم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا ﴾[1].

٢- تضخم الشعور بالمظلومية وآثاره السلبية:

وقع ظلم كبير على أئمة أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم على مدى الزمان وصفحات التاريخ خير شاهدا على ذلك وتفننت الدولة الأموية والعباسية بتلك الممارسات على الأئمة أولا وشيعتهم ثانيا ولم يقتصر الأمر على هاتين الدولتين وإنما استمر حتى الوقت الحاضر وإن اختلفت النسبة وتغيرت الأساليب.

من الناحية الرسمية كان معاوية بن أبي سفيان هو السابق إلى (تشريع) ذلك الظلم و (تقنينه) بحيث صدر في عهده عدد من المراسيم التي جعلت تلك الممارسات الظالمة سياسة متبعة، لذلك فقد منع عطاء كثير من الشيعة من بيت المال بل محى أسماءهم من الديوان[2].

---

(١) الأنفال: ٦٥.

(٢) الدرجات الرفيعة، السيد علي ابن معصوم المدني ص٥: روى أبو الحسن علي بن محمد بن أبي يوسف المدايني في كتاب (الأحداث) قال: كتب معاوية نسخة واحدة إلى عماله بعد عام الجماعة: أن برئت الذمة ممن روى شيئا «من فضل أبي تراب وأهل بيته، فقامت الخطباء في كل كورة وعلى كل منبر يلعنون عليا» ويبرؤن منه. ويقعون فيه وفى أهل بيته، وكان أشد الناس بلاء حينئذ أهل الكوفة لكثرة من بها من شيعة علي عليه السلام، فاستعمل

عليهـم زياد بن سـمية وضم إليهـا البصرة، وكان يتبع الشـيعة وهو بهم عـارف لأنه كان منهـم أيام عـلي عليه السلام فقتلهم تحـت كل حجر ومـدر وأخافهم وقطع الأيـدى والأرجل وسـمل العيون وصلبهم على جذوع النخل، وطردهـم وشردهم من العراق، فلم يبق بها معـروف منهم وكتـب معاوية إلى عماله في جميع الآفاق: أن لا يجيزوا لأحد من شـيعة على عليه السلام وأهل بيته شـهادة. وكتب إليهم أن انظروا من قبلكم من شـيعة عثمان ومحبيه وأهل بيته والذين يروون فضائله ومناقبه، فادنوا مجالسهم وقربوهم وأكرموهم واكتبوا إلى بكل ما يروى كل رجل منهم، واسمه واسم أبيه وعشيرته، ففعلوا ذلك حتى أكثروا في فضائل عثمان ومناقبه لما كان يبعثه إليهم معاوية من الصلات والكساء والحباء والقطايع، ويفيضه في العـرب منهـم والموالي فكثر ذلك في كل مصر، وتنافسـوا في المنـازل والدنيا فليس يجئ أحـد بخبر مردود مـن الناس عاملا من عمال معاوية فيروى في عثـمان فضيلة أو منقبة إلا كتب اسـمه وقربه وشـفعه، فلبثوا بذلك حينا ثم كتب إلى عمالـه: إن الحديث في عثمان قد كثر وفشا في كل مصر وفى كل وجه وناحية فإذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلى الرواية في فضـل الصحابة والخلفاء الأولين ولا تتركوا خبرا يرويه أحد من المسلمين في أبى تراب إلا وأتـوني بمناقـض لـه في الصحابة، فان هذا أحـب إلي وأقر لعينـي وأدحض لحجة أبي تـراب وشـيعته، وأشـد عليهم من مناقب عثـمان وفضله فقرئت كتبه عـلى الناس فرويت أخبـار كثـيرة في مناقب الصحابة مفتعلـة لا حقيقة لها وجد النـاس في رواية ما يجرى هذا المجرى حتى أشـادوا بذكر ذلـك على المنابر وألقى إلى معلمي المكاتـب، فعلموا صبيانهم وغلمانهم من ذلك الكثير الواسع حتى رووه وتعلموه كما يتعلمون القرآن، وحتى علموه بناتهـم ونسـاءهم وخدمهم وحشـمهم فلبثوا بذلك ما شـاء الله تعالى، ثـم كتب إلى عماله نسخة واحدة إلى جميع البلدان انظروا من قامت عليه البينة انه يحب عليا »وأهل بيته فامحوه مـن الديوان واسـقطوا عطاءه ورزقه وشـفع ذلك بنسـخة أخرى، مـن اتهمتموه بموالاة هؤلاء القوم فنكلوا به واهدموا داره. فلم يكن البلاء أشـد ولا أكثر منه بالعراق ولا سـيما بالكوفـة، حتـى إن الرجل من شـيعة علي عليه السلام ليأتيه مـن يثق به فيدخل بيتـه فيلقى إليه بسره ويخاف من خادمه ومملوكه ولا يحدثه حتى يأخذ عليه الإيمان الغليظة ليكتمن عليه، فظهر حديث كثير موضوع وبهتان منتشر، ومضى على ذلك الفقهاء القضاة والولاة، وكان أعظم ذلك بلاء القراء المراؤون والمستضعفون الذين يظهرون الخشوع والنسك فيفتعلون الأحاديـث ليحظـوا بذلك عند ولاتهم ويقربوا مجالسـهم ويصيبوا بـه الأموال والضياع، حتـى انتقلـت تلك الأخبـار والأحاديث إلى أيـدي الديانين الذين لا يسـتحلون الكذب فقبلوهـا ورووهـا وهم يظنـون أنها حق، ولو علمـوا أنها باطلة لما رووهـا ولا تدينوا بها. ولم يـزل كذلك حتى مات الحسـين بن علي عليه السلام فازداد البـلاء والفتنة، فلم يبق أحد من هذا القبيل إلا خائف على دمه أو طريد في الأرض. ثم تفاقم الأمر بعد قتل الحسين عليه السلام

وتضاعف الأمر في عهد العباسيين حتى لقد ترحم الناس على العهد الأموي لعنف ما لقوه أيام بني العباس ومن جاء بعدهم حتى قال قائلهم:

تالله ما فعلت أمية فيهم معشار ما فعلت بنو العباس

ولا تزال صور من المظلومية المستمرة، تتمثل في إقصاء مذهب أهل البيت عليهم السلام عن الحياة العامة والتنكر له، وإبعاد أتباعه عن المواقع المهمة في بلادهم.. مما لا يخفى على المتأمل. بل وصل الأمر في حالات كثيرة إلى أن يكون التشيع وصمة تجعل صاحبها في ضيق في معيشته وعمله..

وبالرغم من أن المظالم التي وقعت على الأجيال المتأخرة لا تقاس لقلّتها بما وقع على الأجيال المتقدمة، إلا أن ذلك التاريخ المفعم بالعداء لشيعة أهل البيت، وهذا الحاضر المتجهم، صنع شعورا متضخما بالمظلومية والاضطهاد، وتحول مع الأسف إلى منهج تفكير، وطريقة، ورؤية لدى بعض أبناء مجتمعنا الشيعي، ووصل شعوره بالاضطهاد والمظلومية إلى حد أن البعض يفكر بأنه قدر مكتوب عليه ولا مجال للفكاك منه. وأصبح هذا الجيل يستحضر الماضي في الحاضر، ويعيد إنتاج هذا الشعور بالمظلومية. بل أصبح يألف هذا الشعور و (يأنس) به، بحيث لو افتقده لشعر بالوحشة!!.

وولى عبد الملك بن مروان فاشتد على الشيعة، وولى عليهم الحجاج بن يوسف فتقرب إليه أهل النسك والصلاح والذين يبغضون عليا عليه السلام ويوالون أعداءه فأكثروا من الرواية في فضلهم وسوابقهم ومناقبهم وأكثروا من الغض من علي عليه السلام وعيبه والطعن فيه والشنآن له حتى أن إنسانا» وقف للحجاج، ويقال انه جد الأصمعي عبد الملك بن قريب فصاح به: أيها الأمير إن أهلي عقوني فسموني عليا وإني فقير بائس وإنا إلى صلة الأمير محتاج فتضاحك له الحجاج وقال: للطف ما توسلت به وقد وليتك موضع كذا.

ومكمن الخطورة هو هنا، أي حين يتحول هذا الشعور إلى فلسفة في الحياة، وإلى رؤية لأحداثها وثقافة يُنظر بواسطتها..

فإذا سـألت هؤلاء عن سر تأخرهم أجابوك أن الشـيعة مكتوب عليهم ذلك!! والشـاهد على هذا أنهم ومنذ الأيام الأولى لوفاة رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإلى يومك هذا يُقاسون المعاناة!!.

وينبغي أن نشـير هنا إلى أن المظلومية أمر واقع لا ينكره منصف، سـواء في التاريـخ أو الحـاضر، وعدم الشـعور بها يعني إما عـدم العلم بالتفاصيل، أو موت الشـعور!! ولكن حديثنا في نقد حالة تضخم ذلك الشـعور وتحوله إلى ثقافة معيقة، وفلسـفة سـوداء، تنتج آثارا سـلبية في واقع شيعة أهل البيت كما سيأتي.

إن ما نريد الإشارة إليه أن هذا الشعور المتضخم غير صحيح، والثقافة في هذا المعنى ثقافة خاطئة لا يسندها القرآن و لا تُفهم من الروايات.

بل يُفهم من القرآن والروايات خلاف هذه الثقافة الذي يقرر أنه ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

بينما جيل التخلف يقرر أن الذلة هي المفروضة على المؤمنين!!.

القـرآن يـصرح بأنـه: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[2]، وهذه الثقافة تقول أن شيعة أهل البيت هم الأذلون و الأقلون وهم الذين كُتب عليهم قدر التخلف وسلب الحقوق! أليس هذا فهما مخالفا لصريح القرآن؟ والفرض أن هؤلاء باتباعهم لمنهج أهل البيت عليهم السلام هم من أوضح مصاديق المؤمنين.

(١) سورة المنافقون آية ٨.
(٢) سورة آل عمران، آية ١٣٩.

الآثار السلبية للفكرة الخاطئة

مـن الأفكار الخاطئـة ما يقتصر أثرها عند حـدود (خطأ الفكرة) نظريا من دون أن يؤثر ذلك كثيرا على حياة صاحبها أو مسـيرته، ومنها مـا يولد آثارا خطيرة على سـلوك الإنسـان وحياتـه الاجتماعية، بل على المجتمع ككل.. وتضخم الشعور بالمظلومية هو من تلك الحالات، التي تنتج ثقافة خاطئة وممارسة ناقصة وتستتبع آثارا سيئة..

فمن هذه الآثار:

أولاً: اليأس: إذا ترسـخت هذه الفكرة في شـخص فانه سـيبقى يراوح مكانه ولا يتقدم بعد أن تملكه الشـعور بالمظلومية فأصبح اليأس هو الذي يسيطر عليه ويرى أن هذا الوضع كتبته الأقدار على جبينه لأنه مـوال لأهل البيت.ومثل ما قدر الله عـلى الأئمة ذلك الحيف والظلم!! فإنـه مقـدر على شـيعتهم أيضا فهـل يسـتطيع أن يغير القـدر!! هذا هو اليأس.. وإذا دب في مجتمع فاقرأ عليه الفاتحة.

فالإنسان إنما يتحرك في الحياة بطاقة الأمل وإذا نفذت هذه الطاقة فسوف يبقى الإنسان خاملا.. هذا على مستوى الفرد فكيف إذا عشش هذا الشعور في مجتمع بكامله؟.

في هـذا المجال تجد البعض يفكر بهـذا النحو المغلوط: ما الداعي إلى أن يتفـوق في دراسـته أو يبدع في عمله إذا كان سـيواجه بالرفض أو التنكـر مـن قِبل مسـؤولية؟ ولماذا يجهد نفسـه إذا كانـت نتيجته الإبعاد كنتيجة غيره؟.

بينـما الواقع يقدر أن قوانين الكسـب والجـزاء التي يتحدث عنها

القرآن، هي القاعدة العامة في الحياة، ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ﴾[1]. و ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾[2].

وهي وإن تأخرت على أثر وجود مانع هنا أو هناك، لكن هذه الموانع لا تتحول إلى قاعدة، ولا يكون الاستثناء هو القانون!! فإن الموانع مؤقتة، والقاعدة دائمة، الاستثناء له ظروف محدودة زمانا ومكانا والقانون مستمر ومضطرد.

ثانيًا: الإحساس بالعجز: من آثار هذه المشكلة وهذا الشعور المتعاظم بالمظلومية: العجز والنقص والضعف. فالمرء الذي يعيش تلك الحالة، يعيش الضعف في داخله والعجز في نفسه، ويقابل الحياة والأمور بنفسية العاجز الضعيف أمامها.

إذا أراد أن يطالب بحقه الطبيعي فإنه يذهب وفي نفسه أنه لن يحصل عليه، فيضعف موقف ذاته، ويقضي على عوامل التأثير عنده، ويستسلم مع أول رفض يواجَه به، لأنه يرى نفسه حلقة من حلقات المظلومية التي بدأت مع أئمته ومع تاريخه!!.

بل إنه بهذا الشعور المسيطر عليه يعين على نفسه، فينهزم أمام خصمه نفسيا.

ومثال ذلك ما نُقل عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه سُئل عن السر الذي يجعله يهزم كل من يبرز إليه أجاب لأن غيري يعينني على نفسه، وعندما سئل كيف أجاب ما برزت إلى أحد إلا ويعتقد أني قاتله وأنا

(١) سورة الزلزلة آية ٧.
(٢) سورة الرعد آية ١١.

واثق أنني أقتله[1].

... هـذا الكلام يعني أن خصوم أمـير المؤمنين يكونون منهزمين نفسيا فيضعفون. وفي المقابل توجد الثقة عند أمير المؤمنين والتوكل على الله فينتصر ويتغلب على خصومه ولذا يجب علينا أن لا ندع هذا الشعور يتسرب إلينا فننهزم نفسيا.

ثالثًا: تبرير الفشـل: مع تضخم الشـعور بالمظلوميـة تتمهد حالة تُـبرر التقاعس والكسـل.. ويصبح ذلـك بمثابة (الشـماعة) التي يُعلق عليهـا الكثيرون فشـلهم، ويُرجعـون إليها تراجعهم. فهـم بدلا من أن يتوجهـوا إلى نقاط الضعف عندهم، مثلما هـي طريقة القرآن حين يقوم بتوجيـه اللوم إلى ذات الإنسـان قائلا: ﴿ **بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ** ﴾[2]. ويقـول: ﴿**أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ** ﴾[3].

فـإن هؤلاء بدلا من ذلـك، يقومون بلوم (الآخريـن) الذين هم السـبب في فشلهم، وتراجعهم!! ففي المدرسة بعض الطلاب يقصرون في مذاكرتهـم، ويغيبون في دروسـهم، ويلعبون أيام امتحاناتهم حتى إذا جاء الامتحان، وفشـلوا فيه، رموا القضية على المدرس الطائفي السيء، أو المديـر المعـادي لهم أو غير ذلك من التبريـرات التي يعلمون هم قبل غيرهم أنها غير صحيحة!!.

(١) نهـج البلاغة، خطـب الإمام عـلي عليه السلام، ج٤، ص ٧٥: «وَقِيلَ لَهُ بِـأَيِّ شَيْءٍ غَلَبْتَ الْأَقْرَانَ؟. فَقَالَ عليه السلام: **مَا لَقِيتُ رَجُلًا إِلَّا أَعَانَنِي عَلَى نَفْسِهِ**» (يؤمي بذلك إلى تمكن هيبته في القلوب).

(٢) سورة القيامة، آية: ١٤/ ١٥.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٦٥.

وهكذا بدلا من أن يفكر التاجر في التبكير لعمله والتفكير لنشاطه التجاري يظل نائما إلى فترات متأخرة، حتى إذا ضاعت عليه الفرص، وتوقف نمو تجارته أنحى باللائمة على الآخرين!!.

ونحن لا نريد أن ننفي الأمر بالجملة، فهو حاصل في بعض الحالات، ولكن الكثير منها ليس كذلك ولكن التظلم الزائد عن الحد، وتضخم الشعور بالمظلومية، هو في مثل هذه الحالة غير صحيح.

إن الظلم الذي وقع على أهل البيت والشيعة السابقين أكثر بكثير من الظلم الذي يقع على الشيعة في العالم اليوم، ولكن تضخم الشعور بالمظلومية عندنا أكثر منهم بكثير بل على العكس هم حولوا ذلك الشعور بالمظالم إلى إنجازات بينما نحن أصبحنا نكرس هذا الشعور لكي نجعله تبريرا.

وينبغي على الإنسان أن يضع هذه المشكلة في حدودها فتعرض الشيعة للظلم طوال تاريخهم صحيح ولكن هل الشيعة وحدهم تعرضوا إلى الظلم؟.

الفلسطينيون ألم يتعرضوا ولا يزالون إلى ظلم؟ والأكراد ألم يتعرضوا إلى ظلم؟ والسود في أمريكا وغيرهم..

إذا تعرض إنسان إلى مجموعة من المضايقات أو الظلم فلا ينبغي أن يجعلها حالة تبريرية للوضع السيء الذي هو فيه فيؤثر ذلك سلبا في ثقافته وفي سلوكه وفي عمله وسائر نشاطاته في المجتمع.

كيف نحول هذا الشعور إلى قوة دافعة؟.

إن من المهم مع وجود هذا الشعور أن يتحول إلى قوة دافعة،

لتغيير وضع المظلومية القائم، إلى وضع متعادل منتج.. وذلك عبر ما يلي:

١- العلم بأن جزءا من المظلومية والاضطهاد الذي تتعرض له الشعوب هو بسبب الضعف سواء العلمي أو الاقتصادي أو غيره، فإذا قام هذا المجتمع ببناء القوة الذاتية العلمية والعملية فإنه لا يمكن لأحد أن يستضعفه. وإذا كان الأمر هكذا فيجب أن يعمل. مثلما قال بعضهم: ليست إسرائيل قوية وإنما قوتها بضعفنا.

٢- نشر ثقافة الإنجاز. والمكاسب التي تحققت وتتحقق. فإنه يوجد في المجتمع نماذج كثيرة جدا وأمثلة عديدة للنجاح والتفوق، سواء في الميادين العلمية، أو العملية، وقد حصلوا على درجات عالية، سمعت من أحد الإخوة وهو يتحدث عن صديق له عنده إحدى عشر براءة اختراع لأجهزة،ويوجد أشخاص حياتهم قصة نجاح وتفوق، فمن الضروري أن تنشر هذه الثقافة، وهذه النماذج حتى يتبين أن معزوفة الوتر الحزين المبالغ فيه، استثناءٌ: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾[1].

٣- تنمية الشعور بالتحدي للظروف القائمة: فإن الاستجابة للتحدي ومقاومته هي التي تصنع الحضارات، وتنمي المجتمعات، ولقد بنى أرنولد توينبي هذه النظرية من خلال ملاحظته لكثير من المجتمعات البشرية، وأن المجتمع الذي لا يتعرض لتحدٍ، ينتهي بالتدريج، بينما التحديات التي تواجهها المجتمعات، وتستجيب لها بمقدار من الإبداع والصمود، تصنع لها النصر.

مع وجود هذه المظالم التاريخية إلا أن الوضع الشيعي بقي متحديا

---

(١) سورة النجم، آية: ٣٩.

وهذا يعني أن التحدي للظروف يصنع الانتصارات.

خذ الشعب الفلسطيني مثالا فإن هذا الشعب يتحدى ظروف الظلم والقهر والتجهيل التي فرضت عليه، ويقاومها، وسينتصر بإذن الله، ومع هذا التحدي ليس غريبا أن نجد أن نسبة[1]، حملة الشهادات العليا من الفلسطينيين أعلى من نسبتها لدى الإسرائيليين، مع توفر كافة الظروف المساعدة لدى هؤلاء، وانعدامها لدى أولئك.

وأما الحديث عن مظلومية أهل البيت عليهم السلام فهو أكثر دلالة على خطأ تضخم المظلومية والشعور بها، فإنه مع تسليمنا بالمظلومية التي حلت على أهل البيت عليهم السلام وغيرُها لا يقاس بها لعظمتها إلا أننا لو لاحظنا الإنجازات التي حققوها، والأهداف التي تتبعوها، في مقابل المظلومية نجد أن الإنجازات أضعاف تلك المظلومية التي حلت عليهم.لقد كان غرض الظالمين لأهل البيت أن لا يصرخ بالشهادتين وقت الأذان مناد، وأن لا يعلو ذكر محمد صلى الله عليه وآله وسلم على المنائر والمنابر، ولقد تحمل الأئمة ما تحملوا من أجل أن تبقى الشهادتان، ويعلو نداء الدين.. وقد حصل ما أرادوه، وتحقق الذي قصدوه.

وها نحن نرى النتيجة أن الذي انتصر وحقق إنجازاته و أهدافه هم الأئمة دون أعدائهم.

لقد صدق الشاعر في هذا المعنى حينما قال:

ظنوا بأن قتل الحسين يزيدُهم لكنما قتل الحسينُ يزيدا

---

(١) ذكرت بعض الإحصائيات أنه من كل ألف شخص يوجد ١٨ من حملة الشهادات العليا من الفلسطينيين في مقابل ١٤ لكل إسرائيلي.ويعد الفلسطينيون من أوائل الذين أسسوا الجامعات الأهلية مثل جامعة النجاح وبيرزيت..

٣- المثالية (غير الواقعية) في العمل السياسي:

قال تعـالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[١].

المواصفات التي اشـترطها شـيعة أهل البيـت عليهم السلام في من يتولى زمـام الأمـور كانـت عالية جـدا، وهي لا تتناسـب إلا مـع المعصومين عليهم السلام، وربـما كان ذلـك ضروريـا لوقـف حالـة الانهيـار في المقاييـس والتـي بـدأت في الأمة، ونتج عنهـا أن صار من يحمل النسـب الأموي أو العباسي، ويكون ابنا للحاكم السـابق أو أخا، فهو مؤهل لكي يكون خليفة النبي، وأمير المؤمنين!!.

ولعلك تدرك معنى كلام الإمام الحسـين عليه السلام: «**وَعَلَى الْإِسْلَامِ السَّلَامُ إِذْ قَدْ بُلِيَتِ الْأُمَّةُ بِرَاعٍ مِثْلِ يَزِيدَ**»[٢].

لقـد كان موقـف أهـل البيت عليهم السلام حازمـا في ما يرتبـط بالقادة والمترئسين، فإن كان صالحا ومن (أولي الأمر) فلا بد من طاعته وإتباعه، بل لقد قرن الله طاعته، بطاعة الله وطاعة رسوله.. وفي المقابل كانوا حربا على المتسلطين من غير وجه حق. وكانت نظرية الإمامة عند الشيعة بمثابة الحصن الواقي من الانهيار، فـ (علي ولي الله) يكون شـعارهم، ومثالهم. وهو مقياسـهم في الحكم والقيادة، وباقـي الأئمة المعصومين عليهم السلام هم تعقيب صلاتهم.

نقـول هذا في الوقت الذي كان فيه غيرهـم، يخضع للواقع تماما،

(١) سورة التغابن آية ١٦.
(٢) بحار الأنوار: ج٤٤، ص٣٢٦.

بـل يغـير نظريته في الإمامة[1] و (يطورها) بحسـب الحاجة والطلب إلى أن وصلنـا اليوم إلى حديث أنه لم يكن هناك طريقة دينية أو إسـلامية في الحكم.. يعني انتقلت النظرية عند غير الشـيعة، من إمام يبايعه جمع من أهـل الحل والعقد إلى إمام منصوب من السـابق، إلى ثالث يرجحه رأي واحد في قضية الشورى، إلى حكم الفرد المتغلب أيام الأمويين، إلى كونه ابن الأسرة الفلانية أيام العباسـيين، وهكـذا.. إلى أيامنا الحاضرة وأنت ترى ما فيها.

هـذا الحـرص على الأفضـل والأكمل في مسـألة القيـادة العامة، والإمامـة الكـبرى، بمقـدار ما كان حسـنا في منـع انهيـار المقاييس عند الشـيعة، فإن البعض قد فهمه بصورة غير متكاملة، فطفق يطالب بتلك المقاييـس في كل مـكان، بـدءا من صـلاة الجماعـة، إلى القائد السـياسي والاجتماعي المرحلي.

وهذا هو الذي أوقع الشيعة في كثير من المناطق، في مشاكل:

---

(١) المستشار عبد الجواد ياسين في مقابلة مع الشرق الأوسط ٢٨ ديسمبر ٢٠٠٣م:
«كـما أشرت في كتـابي فقد ظل بـاب النظرية السـنية في الخلافة مفتوحاً عـلى الدوام حتى منتصـف القـرن الرابـع على الأقـل حيث أبـدت النظريـة قـدراً مذهلاً مـن المرونة اسـتطاعت من خلاله أن تسـتوعب داخل إطارها دولة الراشـدين الشورية، ودولة الأمويـين الوراثية الاسـتبدادية، ودولة العباسـيين الأولى بطابعهـا الدموي، ودولة العباسيين الثانية بحكوماتها السلطانية التي فرغت (الخلافة) من مضمونها الحقيقي. وفي سـبيل ذلـك فقـد اسـتطاعت النظرية السـنية وهـي تتلوى مـع التاريـخ أن تقر مبـدأ الاختيار الطوعي مـن الأمة للحاكم، ثم تقبل من أبي بكر مبدأ (الاسـتخلاف الفـردي)، ومـن عمر (الاسـتخلاف الجماعي)، وتقبـل من تجربة عثمان مبدأ (تأبيد الولايـة)، وتقبل من الأمويين مبدأ (توريث السـلطة) أو (الأسرة المالكة)، وتقر من خـلال الواقع العبـاسي مبدأ (ولاية المتغلب) من السـلاطين والـوزراء، حتى إذا ما صار الحاكم في نهاية الأمر ضرباً من السـلطة الدينية ذات طابع رمزي فاتيكاني، فإن النظرية فيما يبدو لم تبد اعتراضاً».

- فمـن البداية كما ذكرنـا، وجدنا أن الصور النمطيـة التي يراها الكثير من الشـيعة للعلماء، هي صور في غاية الرفعة والعلو وهي صور الأئمة عليهم السلام، ويطلبونها مع علمهم بأنها غير ممكنة.. صورة إمام الجماعة في ذهنـه هي صـورة المقدس الأردبيلي أو السـيد بحـر العلوم! وصورة القائد الاجتماعي هي صورة الإمام المعصوم أو من هو دونه بقليل!!.

بالطبـع هـذا الأمـر عندمـا يكـون في حـدود الجوانـب العلميـة والأخلاقية، فإنه يكون نافعا إذ يشحذ العزيمة عند الجميع حتى يصلوا إلى ذلك المستوى العالي.

ولكن عندما يتم تحكيمه في أمر العمل الاجتماعي والإدارة السياسية كشرط واجب في من يتصدى للعمل ذاك، تكون النتيجة أن لا يوجد هذا القائد، ويترتب عليه أن يبقى المجتمع الشـيعي عندنا في شكوى دائمة من انعـدام القيـادات.إذ أن المواصفـات العالية التي يتم اشـتراطها في أبسـط الأمور تجعل القضية خاضعة لقاعدة (كلما كثرت القيود قل الموجود).

الصحيـح هـو أن ينظر إلى كل مجـال، وما يتطلبه مـن مواصفات ضرورية، وتبقى باقي الصفات في دائرة الكمال والاستحباب.

- مـن نتائـج هـذه المشـكلة، أن المجتمـع هـذا لا يسـتطيع أن يضـع خططـا تدريجية لأهدافـه، ولذلك لا يسـتطيع اسـتثمار الظروف والمتغيرات.

أمـا أنـه لا يسـتطيع أن يضع تلـك الخطـط التدريجية فلأنـه لا يرى الأهداف البسـيطة أهـلا لأن يطالب بها، بل هو يعيش عـلى عقلية (إما كله أو خله) كما هو في المأثور الشعبي و(لنا الصدر دون العالمين أو القبر)..وإذا لم يرها تسـتحق المطالبة ولا النضال مـن أجلها فكيف يضع خططا تدريجية

لها؟.

ولتوضيح هذه الفكرة يقال:

أن هناك رأيين فيما يرتبط بالمطالبة بالحقوق الاجتماعية:

أولها: يقول أنه إما أن يعطى الإنسان حقه كاملا، فهذا هو الذي يستحق أن يُعمل من أجله وأن يقام له ويقعد!! وأما ما دون ذلك من عطاءات بسيطة (يُتصدق) بها عليه، فهذا لا يستحق شيئا ولا ينبغي أن ينشغل المجتمع به.

وثانيهما: ينطلق من نظرة واقعية، أن على الفرد أو المجموعة أن يحافظوا على ما لديهم، وأن يطالبوا بما هو ممكن من الحقوق، وأن يسعوا لما يرجونه، من أهدافهم العالية.. وكل شيء يحصلون عليه هو إنجاز، ينضم إلى غيره حتى تجتمع هذه الانجازات الصغيرة، فتشكل إنجازا عظيما فالقرآن يقول: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾[1] وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام: «الميسور لا يسقط بالمعسور» و «ما لا يدرك كله لا يترك كله».. إلى غير ذلك مما ورد في النصوص الدينية، التي يستفاد منها هذا الجانب.

وربما يُنطلق في تأييد الرأي الأول من واقعة كربلاء ونهضة الإمام الحسين عليه السلام حيث أنه رفض الحكم الأموي جملة وتفصيلا، ولم يقبل أن يعطي الدنية من نفسه. وحيث أن الإمام الحسين عليه السلام هو القدوة الحاضرة، لا سيما مع هذا التركيز الموجود على شخصيته الطاهرة في مناسبة محرم الحرام بل في غيرها من المناسبات، فإن ذلك يزيد من حضور فكرة التغيير الجذري، وعدم التفاعل مع المطالبات التدريجية والجزئية[2].

(١) سورة التغابن آية ١٦.

(٢) هذا إضافة إلى عدد من التجارب غير المنتجة للعاملين مع قسم من الحكومات التي

بينما يرى أتباع الرأي الثاني أن سيرة الأئمة عليهم السلام هي خير شاهد على فكرتهم، مع ملاحظة استثناء فترة الإمام الحسين عليه السلام، وما يفترض من طريقة الإمام الحجة بن الحسن (عجل الله فرجه)، نظرا لخصوصية في الحالتين، حيث أن الحالة التي عاصرها الإمام الحسين في عهد يزيد، كانت قد تضيقت عنده الخيارات، إلى طريقين لا ثالث لهما كما أخبر هو عليه السلام فقال: «**أَلَا إِنَّ الدَّعِيَّ ابْنَ الدَّعِيِّ قَدْ رَكَزَ بَيْنَ اثْنَتَيْنِ بَيْنَ السَّلَّةِ وَالذِّلَّةِ وَهَيْهَاتَ مَنَّا الذِّلَّة**»[1].. فلم يكن هناك إذن طريق ثالث، وأما حالة الإمام صاحب العصر والزمان الحجة بن الحسن، فإنها لما كانت عملية ثورية عالمية تملأ الأرض قسطا وعدلا بعدما مُلئت ظلما وجورا، فإن لها ظروفها الخاصة بها والتي لا يمكن البناء على مشابهتها للأوضاع القائمة.

وأما بالنسبة لسائر الأئمة عليهم السلام فإن حياتهم قائمة على أساس المطالبة بما يمكن تحقيقه والعمل على ذلك، والاستفادة من الظروف بمقدار ما توفره لهم من إمكانية.

بين المثالية والمبدئية

قد يختلط الأمر على الكثير في التفريق بين المثالية والمبدئية، وبين المصلحية والواقعية، فيرونها مترادفة غير أن الصحيح خلاف ذلك.

فالمبدئية في المواقف مطلوبة في كل الأوقات، يعني أن يتخذ الإنسان موقفه في الموقع المعين منطلقا من مبادئه، مع ملاحظة الواقع

ظلت تسوف وتماطل من دون أن تعطي شيئا مهما للناس.

(١) اللهوف في قتلى الطفوف: للسيد بن طاووس، وقريب منه ما في ترجمة الإمام الحسين عليه السلام في تاريخ دمشق لابن عساكر.

الذي يعيش فيه. فمثلا لو أخذنا صلح الإمام الحسن عليه السلام مثالا، فإنه بحسب الواقع والظرف الذي كان يعيشه الإمام آنئذ يعتبر الموقف المبدئي الممكن والصحيح. وهكذا مواقف باقي الأئمة المعصومين عليهم السلام..

ونفس الأمر نجده في سيرة العلماء والفقهاء والقادة الرساليين المصلحين.

إلا أن ثقافة (تحقيق كل شيء أو لا شيء يستحق) ظلت هي الحالة الغالبة على شيعة أهل البيت عليهم السلام، وجعلتهم في فترات مختلفة من التاريخ، وقود الثورات، حيث حماس التغيير يدفعهم، بينما يأتي غيرهم لكي (يأكل) الطبخة، ويستفيد من النتائج. خصوصا وأنهم لم يكونوا يقبلون في الغالب بأنصاف الحلول، أو الممكن من الأهداف الجزئية والتدريجية.

ومع أن الناس في ما يرتبط بحياتهم الفردية والخاصة، وتحقيق حاجاتهم يكونون واقعيين للغاية، ويتعاملون مع الواقع الخارجي بمقاييسه ومعادلاته إلا أنهم عندما يكون الأمر في قضية عامة، يجعلون الحالة المثالية هي المقياس. فهو لا يرى إلا آخر المشوار، وما لم تتحقق جميع الأهداف، فإنه لا يعتقد أن شيئا قد تحقق!!.

وفي الحقيقة فإن هذا قد أضاع على شيعة أهل البيت كثيرا من الفرص، وربما كانوا في بعض الحالات على طريقة (أوسعته شتما وسار بالإبل)!!.

وينتج عنه أنه بالرغم من وجود الكفاءات العظيمة عندهم إلا أنهم يظلون، يشكون من عدم وجود القيادات، وإنما ذلك لأجل أن مقاييسهم في القيادة المطلوبة مقاييس (مثالية).

والمشكلة أن هؤلاء الناس (المثاليين) يطالبون بمقاييس مثالية في القيادات والكفاءات، ولكنهم لا يكلفون أنفسهم عشر معشار تلك الصفات (المثالية)، فالمقاييس العالية مطلوبة في القادة، أما في الأتباع فهم على حالهم ولا يطلبون من أنفسهم شيئا، سوى القدرة على النقد السلبي، والاسترخاء للحكم على هذا وذاك بأنه أصاب أو أخطأ!!.

إننا عندما ننظر إلى تاريخ أهل البيت عليهم السلام وتلك الصفات العالية عندهم، والمقاييس الاستثنائية التي تمتعوا بها، نجد أيضا إلى جانبهم أولئك الأتباع الطليعيين، والمضحين.. وقد كانوا في درجات مثالية كذلك[1].

٤- القدرة على صناعة القيادة:

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾[2].

هذه الآية المباركة تعبر عن أحد التطلعات التي يتطلع إليها عباد الرحمن. وذلك أن أدعية الإنسان تعبر عن حاجته وافتقاره، وتبرز تطلعاته. فمن تطلعات عباد الرحمن أنهم يريدون أن يكون أئمة للمتقين[3].

وأول ما ينبغي بحثه هنا:

التفريق بين حب الرئاسة والزعامة، وبين التطلع إلى القيادة، ففيها نجد كما في الآية أن عباد الرحمن يطلبون من الله أن يجعلهم قادة

---

(١) يراجع كتاب بناء القادة في منهج أهل البيت عليهم السلام للمؤلف، في الحديث عن حواريي المعصومين عليهم السلام وخلص أصحابهم رضي الله عنهم.
(٢) سورة الفرقان آية ٧٤.
(٣) على أحد تفسيري الآية.

المتقين، وأئمة مسيرتهم، نجد في نصوص أخرى[1] الكثير من الذم لحب الرئاسة، ولمن يحب الزعامة.

وهذه اللهجة القاسية الموجودة في الروايات تجاه طلب الرئاسة تفسرها روايات أخرى بأنه إذا كان طلبها من غير أهلها ولغرض الترؤس والحالات الشخصية. ولعل قسما منها ناظر إلى حالات الحاكمين المتسلطين من غير كفاءة ولا شرعية.

ولكن هناك تطلعاً مشروعاً ومطلوباً، وأحيانا قد يكون واجبا، وهو أن يتطلع الإنسان إلى قيادة مجتمع المتقين، هو ينطلق في ذلك من صلاحيته بالفعل، أو (في المستقبل) لكي يتحمل المسؤولية القيادية، ويهدف إلى خدمة مجتمعه، ودينه.

وذلك أن الناس يختلفون في مستوى طموحهم وتطلعهم، فقد يتطلع إنسان إلى أن يكون من المؤمنين، وأخرى أن يكون من خيارهم «**وَاجْعَلْني مِنْ أَحْسَنِ عَبيدِكَ نَصيباً**»[2]، وثالثة إماما لهم وقائدا لجماعتهم بغرض خدمتهم والدفاع عن حقوقهم.. وهذا تطلع مرغوب فيه، بل ربما كان في بعض الحالات واجبا إذا كان منطلقا من أهله وبغاية خدمة المجتمع.

---

(١) وسائل الشيعة عن كتاب (الرجال) للكشي بسنده عن معمر بن خلاد قال: قال أبو الحسن عليه السلام: «**مَا ذِئْبَانِ ضَارِيَانِ فِي غَنَمٍ قَدْ غَابَ عَنْهَا رُعَاؤُهَا بِأَضَرَّ فِي دِينِ الْمُسْلِمِ مِنْ حُبِّ الرِّئَاسَةِ**»، وفي مستدرك الوسائل، ج١١، ص٣٨٣، عن كتاب إثبات الوصية للمسعودي بسنده عن أبي محمد الحسن العسكري عليه السلام: «**وَإِيَّاكَ وَالْإِذَاعَةَ وَطَلَبَ الرِّئَاسَةِ فَإِنَّهُمَا يَدْعُوَانِ إِلَى الْهَلَكَةِ**».

- ميزان الحكمة عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**مَنْ طَلَبَ الرِّئَاسَةَ هَلَكَ**». وعن الإمام الصادق عليه السلام: «**إِيَّاكُمْ وَ هَؤُلَاءِ الرُّؤَسَاءَ الَّذِينَ يَتَرَأَّسُونَ فَوَ اللهِ مَا خَفَقَتِ النِّعَالُ خَلْفَ رَجُلٍ إِلَّا هَلَكَ وَ أَهْلَكَ**».

(٢) كما في دعاء أمير المؤمنين عليه السلام الذي علمه كميلا بن زياد النخعي المعروف بدعاء كميل.

إن إمـام الجماعـة في الصـلاة أكثر ثوابا مـن المأمـوم فيها. والقائد الـذي يحقـق أهداف دينـه في المجتمع أكرم على الله من الشـخص الذي ينشغل بنفسه وبحياته الشخصية.

والحديـث هنا عن القيـادات الاجتماعية ليس حديثـا عن رجال الدين، وإنما يشـمل أيضا الوجاهـات الاجتماعية، والمفكرين، وقيادات العمل الاجتماعي وكل من يستطيع أن يصنع إضافة في هذا المجال.

هناك نقطة أخرى وهي التفريق بين المجتمعات التي تصنع قياداته وتفرزهـا، وتبرزهـا ثـم تنتفع بهـا، والأخرى التـي تعيق نمـو القيادات الاجتماعية، بل وتدفنها لو كانت موجودة. فلنستعرض جانبا من صفات كل من المجتمعين لنرى في أي جانب يقف مجتمعنا الذي نعيش فيه.

صفات المجتمع صانع القيادات

١- مقاييسه في القيادة والإدارة معقولة وليست مثالية:

ويتـم المطالبـة بها بمقدار مـا يحتاج إليـه المجال الـذي يُدار. فلو فرضنـا الحاجـة إلى قيـادي لفريـق رياضي، فهنـا نحتاج إلى مـن يمتلك كفـاءة في إدارة النـوادي الرياضية، ولكن هذا لـو لم يكن عالما بتفاصيل الأحكام الشرعية، أو لم يكن له خبرة طبية فذلك لا يؤثر في إدارته سلبا، ولا يمكن أن يكون عائقا عن قبوله كقيادي لذلك النادي.

وهكذا لو كنا نحتاج إلى قائد عسكري، فهذا لا يتطلب أن يكون عالمـا بالقضـاء، أو أن يكـون عارفا بالهندسـة أو فقيها، فقد عـيّن النبي ﷺ أسـامة بن زيد وكان قائدا عسـكريا جيدا، مع صغر سنه، وكون غيره أفقه منه على جيش لقتال الروم.

وقـد تقـول إن ذلـك أمر بديهـي، ولكني أقـول لك أن المشـكلة قائمـة في مجتمعنا الشـيعي، وهي أن مقاييس القيـادة مفصلة على مقدار جسـم المعصوم دون غيره، فإذا تحدثنا عـن القائد تبادر إلى ذهننا صورة رسول الله ﷺ أو علي بن أبي طالب عليه السلام.. وهذا صحيح في الإمامة العظمى.

أمـا في الأمـر الاجتماعي، فالمقاييس فيه يجـب أن تكون في حدود دائـرة الممكـن والمتيسر، ففـي العمل السـياسي، نحتـاج إلى مقدار جيد مـن الإخلاص، والوعي، والأداء الحسـن..ليس أكثر.لكن مجتمعنا إذا أراد قائدا فإنه يطلب قائدا في مسـتوى السـيد بحر العلوم تقىً، والشيخ الأنصاري علما.. وأبي الحسن الأصفهاني إدارة.. وهو غير ممكن، لذلك يبقى مثل هذا المجتمع بلا قائد.

٢- أنه مجتمع يشجع المبادرات القيادية، فإذا وجد شخصا مؤهلا (أو قابـلا للتأهيـل) ولديه حركـة باتجاه خدمـة المجتمع فإنه يشـجعها ويدعمهـا، ويرشـدها، بينما المجتمـع الآخر تراه يقبر تلـك المحاولات سخرية، واستهزاء.. فتراه يتساءل كيف يكون (فلان) الذي كان يلعب معنا، ومن أترابنا قائدا لنا؟.

انظر إلى المجتمع الجاهلي القرشي، تجد كمّا كبيرا من الناس، وهناك عـدد محدود مـن الرجال ذوي الأسـماء كانـوا بمثابة القـادة لهم.. نفس ذلـك الكم الكبير المهمل الـذي كان لا روح فيه، تحول بعد أن بث فيهم الرسول الإسلام، تحول أشخاصه بمن فيهم العبيد الذين كانوا يُساوَون بالحيوانـات إلى رجال وقادة ورواد.وما ذلك إلا لأن رسـول الله ﷺ قـد بث في داخلهم الحياة وشـجع مـن يمتلك منهم قـدرة وكفاءة حتى

وصلوا إلى ذلك الموضع العالي.

٣- أنـه يضـع قوته إلى جانـب قوة القائـد، فتجد لجـان المجتمع ومؤسساته، وخبراته واستشارييه في خدمة اتخاذ القرار السليم، المجتمع يضع كل تلك إلى جانب قائده ويرفده بها..

انظروا إلى المجتمعات الغربية!! هل تعتقدون أن شـخصا واحدا هو الذي يقود ربع مليار نسـمة أو أكثر؟ ويفكر لها، ويخطط لشـؤونها؟ كلا.. إنـما المجتمع بما فيه من المؤسسـات والاستشـاريين والهيئات هي التـي ترفد ذلك القائد بخبراتها ومعلوماتهـا فينتج عن ذلك قرارات في مصلحة المجتمع.

مع الأسف ما هو في مجتمعنا: عقلية (اللي قال عليه النكال).. فالقائد لابد أن يعمل كل شيء، يخطط ويثقف ويجمع الأموال ويدير العمل الديني والاجتماعي، بل نحمله مشاكلنا الخاصة أيضا لكي يحلها لنا.

٤- أنـه مجتمع يعتز بقياداته المحلية: يشـير القـرآن إلى أهمية محلية القيـادة بالنسـبة للمجتمـع فيتحدث عن الرسـل أنـه ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾[1]، ويعتـبر ذلـك منـة مـن الله على المؤمنـين ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴾[2].

وهـذا ليـس أمـرا تعبديا وإنما هـو أمر عقلائـي، لأن هـذا النبي

(١) سورة إبراهيم، آية: ٤.
(٢) سورة آل عمران، آية: ١٦٤.

يعرف المجتمع الذي كان منه ويعرف مشاكله، وطريقة تعامله فيسهل عليه أمر علاجها..

بينما بعض المجتمعات ترى أنه مادام الشخص ذو الكفاءة منها فلا يساوي شيئا، وهذه شكوى دائمة من كثير من الأطباء. والعلماء وأصحاب الكفاءات الأخرى.. حيث تحجب الصورة السابقة لذي الكفاءة الصورةَ الحالية، وبدل أن ينظر إلى وضعه الحالي وشأنه المهم الفعلي تراه ينظر إلى أنه من أسرة متواضعة، أو أنه نشأ نشأة كذائية، أو أنه كان قد تربى معنا في جيل واحد، فلا يمكن أن يتقدم علينا، وهكذا..

ومع الأسف فإننا نجد هذه الظاهرة السلبية (وأد القيادات) في مجتمعنا وهذا ليس من التشاؤم ولا جلد الذات..

وربما كان لبعض تلك الحالات ظروفها التاريخية، مثل التشدد في صفات القيادة الذي كان ردا على التساهل الذي حصل في أمر الإمامة والقيادة لدى بعض الفئات الإسلامية.. وهو صحيح بالنسبة للإمامة الكبرى، لكن المشكلة أنه انجر إلى مجالات الحياة العامة..

فقد تجد أنه يطلب لصلاة الجماعة فقيه مجتهد بينما لا تحتاج صلاة الجماعة إلا للعادل الذي يتقن القراءة مع بعض الشروط الأخرى التي تتيسر للأكثر.

لقد ذكر شيخ الطائفة الطوسي رَحِمَهُ اللهُ [1] كلاما جيدا في كتابه:

(١) ذكره المحدث القمي في الكنى والألقاب، ج٢، ص ٣٩٤، فقال ما ملخصه: «هو أبو جعفر محمد بن الحسن بن على الطوسي شيخ الطائفة.. تلمذ على الشيخ المفيد والسيد المرتضى.. كان في بغداد مع استاذيه إلى أن حصلت الفتنة فهاجر إلى النجف وفيها اسس الحوزة العلمية إلى أن توفي سنة ٤٦٠. من كتبه التبيان الجامع لعلوم القرآن و التهذيب والاستبصار. والمبسوط والنهاية، والخلاف والجمل والعقود في

الاقتصاد الهادي إلى طلب الرشاد يقول فيه:

وكل من ولي ولاية صغرت أو كبرت كالقضاء والإمارة والجباية وغير ذلك فانه يجب أن يكون عالما فيما أسند إليه ولا يجب أن يكون عالما بما ليس بمستند إليه، لأن من وُلِّي القضاء لا يلزم أن يكون عالما بسياسة الجند، ومن ولي الإمارة لا يلزم أن يكون عالما بالأحكام، وهكذا جميع الولايات، ولا يلزم أيضا أن يكون عالما بصدق الشهود والمقرين على أنفسهم، لأنه إنما جعل إماما في الحكم بالظاهر دون الباطن.

وقد هوّن الإسلام مسألة القيادة (الاجتماعية) وحاول أن يربي المسلمين على إفراز القائد من بينهم، فسنَّ الجماعة في الصلاة حضرا وسفرا، وجعل الإمارة والقيادة أمرا يسيرا، فإذا سافر جماعة «إذا كان ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم»، و«إذا كنتم ثلاثة في سفر فليؤمكم أحدكم وأحقكم أقرؤكم»[1].

وينبغي الإشارة هنا إلى بعض الحالات النفسية التي تمنع قبول بروز القيادات في المجتمع: قد يكون منها الحسد المبطن، والتنافس غير الشريف، فتجد البعض حين يرى إنسانا قد توجهت الأضواء إليه،

العبادات، والعدة في أصول الفقه، و الفهرست، وكتاب الرجال، واختيار معرفة الرجال، والمفصح في الإمامة، والغيبة في إثبات غيبة صاحب الزمان، وله أيضا مصباح المتهجد.. وغيرها من الكتب».

(١) الأحاديث عن رسول الله ﷺ من ميزان الحكمة للري شهري، ويلاحظ فيها تسهيل اتخاذ الأمير في السفر وهو حالة اجتماعية بين مجموعة، والمقصود كنتم ثلاثة فصاعدا لا أنه ثلاثة لا تزيد ولا تنقص.. ويضاف إلى ذلك أنه قد يستفاد منها أن التطلع لقيادة هذه المجموعة لما كان طبيعيا، ومشروعا، وكان محلا للتنافس فقد ذكر هذا الحديث، ميزانا وهو الأقرأ في الصلاة. باعتبار أن هذه الجهة هي المطلوبة في الصلاة. وطبعا لا يمنع ذلك من ثبوت بعض الصفات الأخرى لجواز الائتمام من أحاديث أخر مثل: صل خلف من تثق بدينه.. وغيره من الأحاديث المذكورة في باب صلاة الجماعة.

وأصبــح موضــع قبول عامة الناس، وهو يتحرك وينجح في نشــاطاته.. بينما هذا الطرف الثاني يعتقد أنه أفضل منه وأولى بهذا الموقع، فيحسده، ويتحــرك ضده، بالطبع لا يقول أنني أحســد فلانــا، ولكن ذلك يُعرف من خلال ما يصدر مــن تعليقات..فيقول مثلا لبعض من يمدحه: هذا عميل، وهذا نيته غير صالحة..الخ.

شتان بين الموقفين

بين ما يُنقل في التراث العربي بين الأصحاب من الصفاء والسمو وبين مثل هذه النماذج: وأنقل لك حادثتين:

نقلــوا أنه كان بين حاتم الطائي وأوس بن حارثة أفضل ما يكون بــين اثنــين، فنُقل ذلــك للنعمان بــن المنذر فقــال النعمان لجلســائه: والله لأفسدن ما بينهما!!.

قالوا: لا تستطيع..

فلــما دخل عليه أوس قال له: أســمعت ما يقول حاتم؟ قال: وما يقول؟.

قال يقول: إنه أفضل وأشرف!.

قال: أبيت اللعن صدق! والله لو كنت أنا وولدي لأنهبنا في مجلس واحد! (يعني سمح لنا بأن نأخذ كل ما في بيته).

ثم دخل حاتم فقال له مثل مقالته لأوس.

فقال حاتم: صدق أين عسى أن أقع من أوس؟!، له عشرة ذكور، أخسهم أفضل مني.

- ومثل ذلك ما يُنقل من قصة الشيخ البهائي[1] والسيد الداماد[2]، فإنهم يذكرون أنهما كانا قد خرجا مع الشاه الصفوي (الشاه عباس) وكان السيد الداماد عظيم البدن هاشمي الطول والهيكل بخلاف الشيخ البهائي الذي كان صغير الجثة.. فنظر الشاه الصفوي إلى كل منهما وقد ركب فرسه، وكانت فرس السيد الداماد تتحرك ببطء، نظرا لثقل بدن السيد الداماد، فأسرّ الشاه القول للشيخ البهائي: ألا تنظر إلى هذا السيد كيف أهلك الفرس بضخامة جثته؟ وألم يكن الأنسب أن يكون نحيف البدن؟ فقال له الشيخ البهائي: يا أيها السلطان لا هذا الفرس ولا غيره

---

(١) الشيخ محمد بن الحسين بن عبد الصمد الجبعي العاملي الهمذاني الحارثي: (٩٥٣ -١٠٣١هـ)، بهاء الدين: عالم أديب إمامي، من الشعراء. ولد ببعلبك، وانتقل به أبوه إلى إيران. ورحل رحلة واسعة، ونزل بأصفهان فولاه سلطانها (شاه عباس) رياسة العلماء، فأقام مدة ثم تحول إلى مصر. وزار القدس ودمشق وحلب وعاد إلى أصفهان، فتوفي فيها.. (الأعلام، خيرالدين الزركلي، ج٦، ص١٠٢).
ذكره في الكنى والألقاب، قال: «مجدد المذهب على رأس المائة الحادية عشر، انتهت إليه رئاسة المذهب والملة له تصنيفات وتأليفات متعددة، منها حبل المتين، ومشرق الشمسين والأربعين، والجامع العباسي، والكشكول، والمخلاة، والعروة الوثقى، ونان وحلوا والزبدة، والصمدية، وخلاصة الحساب، وتشريح الأفلاك، والرسالة الهلالية، ومفتاح الفلاح في عمل اليوم والليلة، والاثنى عشريات، والتهذيب، والحواشي على الفقيه وعلى خلاصة الرجال، وعلى الكشاف والبيضاوي وغيرها».

(٢) ذكره في معجم المطبوعات العربية والمعربة ج ١ ص ٨٦٠: فقال: الداماد (ت١٠٤٠هـ) شمس الدين محمد باقر بن محمد الحسيني الاسترابادي الشهير بداماد كان من أجلاء علماء المعقول والمشروع وأذكياء نبلاء الأصول والفروع. قاطنا بدار السلطنه اصبهان مقدما على فضلائها الأعيان مقربا عند السلاطين الصفوية بل مؤدبهم بجميل الآداب الدينية. وكان شاعرا بالفارسية والعربية. من مصنفاته في الحكمة القبسات والصراط المستقيم والحبل المتين وفى الفقه شارع النجاة ومن مؤلفاته كتاب عيون المسائل ونبراس الضياء وخلسة الملكوت وكتاب الرواشح السماوية والسبع الشداد. وغير ذلك: ذهب في آخر عمره من أصبهان إلى زيارة العتبات العاليات فمات هناك.

يستطيع أن يحمل مثل السيد الداماد، بل لا تستطيع الجبال أن تحمل ثقل علم رجل هو أعلم أهل الدنيا، فكيف بالفرس!!.

فابتعد عنه قليلا وقصد السيد الداماد وأسر إليه قائلا وكانت فرس الشيخ البهائي تتحرك بسرعة وبما يشبه القفز: ألا ترى الشيخ كيف يقفز بالفرس ويتحرك به هكذا.. وهو مما لا يناسب العلماء!.

فقال: لقد فاتك الأمر أيها السلطان فإن الفرس لما علمت أن راكبها الشيخ البهائي وهو أعلم أهل الأرض، فهي تقفز فرحا، بل يحق لها أن تطير سرورا!!.

ولم يعلم أي من العلمين ماذا دار بين كل منهما وبين الشاه، فنزل الشاه عن فرسه وسجد لله شكرا، لما رأى ذلك الصفاء والود القلبي بين العالمين.

وقد يكون من موانع بروز القيادات، الانطلاق من الحالات الفئوية والحزبية، فترى البعض يرى أن العمل الكذائي جيد، ولكنه لما كان من فلان فإنه يصبح سيئا!!.

وإن من المهم أن نطهر مجتمعنا من هذه الحالات، ونسعى لكي يكون مجتمعا فاعلا، متحركا، يرصد المبادرات الطيبة، ويشجع عليها، ويرفد قياداته بما ينفعها لينتفع بها.



مصادر الكتاب

بعد القرآن الكريم

١ - **بن أبي طالب**، الإمام علي: **نهج البلاغة**، دار الذخائر قم ايران ١٤١٢هـ.

٢ - **أحمد**، معتصم سيد: **الحقيقة الضائعة**، نسخة الكترونية.

٣ - **آل سيف**، عبد العلي: مقال في مجلة الواحة، العدد: ٣٥.

٤ - **الأمين**، محسن: **أعيان الشيعة**، دار التعارف بيروت.

٥ - **جراهام أي**، فولر و رند رحيم: **الشيعة العرب المسلمون المنسيون**، (فارسي)، دار أسوة قم ايران.

٦ - **البراقي**، حسين النجفي: **تاريخ الكوفة**، المكتبة الحيدرية قم ايران ١٤٢٤هـ.

٧ - **ابن بطوطة**، **رحلة ابن بطوطة**، دار صادر، بيروت.

٨ - **البلادي**، علي: **أنوار البدرين**، مطبعة النعمان، النجف ١٣٧٧هـ.

٩ - **البيهقي**، أحمد بن الحسين: **السنن الكبرى**، دار الفكر بيروت.

١٠ - **تويال**، فرانسوا؛ **الشيعة في العالم**: **صحوة المستبعدين**، دار الفارابي بيروت ٢٠٠٧م.

١١ - **جعفريان**، رسول: **تاريخ الشيعة في ايران**، دار به نشر مشهد ايران، ١٤٢٠هـ.

١٢- **الحر العاملي**، محمد بن الحسن: **أمل الآمل**، مكتبة الآداب النجف العراق.

١٣- **بن حنبل**، احمد: **مسند احمد**، دار صادر، بيروت.

١٤- **الري شهري**، محمدي: **ميزان الحكمة**، دار الحديث قم ١٤١٦هـ.

١٥- **زبيب**، نجيب: **دولة التشيع في بلاد المغرب**، دار الأمير بيروت ١٤١٣هـ.

١٦- **الزركلي**، خيرالدين: **الأعلام**، دار العلم للملايين ١٩٨٠م.

١٧- **سركيس**، يوسف اليان: **معجم المطبوعات العربية**، مكتبة المرعشي قم ١٤١٠هـ.

١٨- **السيف**، توفيق: مقال في مجلة **الكلمة** العدد (٥٩) ربيع ٢٠٠٨م.

١٩- ابن شهر آشوب: **مناقب آل أبي طالب**، المكتبة الحيدرية النجف ١٩٥٦م.

٢٠- **الصدر**، حسن: **تكملة أمل الآمل**، مكتبة المرعشي قم ١٤٠٦هـ.

٢١- **ابن طاووس**، علي بن موسى: **اللهوف في قتلى الطفوف**، أنوار الهدى ١٤١٧هـ.

٢٢- **الطبري**، ابن جرير: **تاريخ الطبري**، مؤسسة الأعلمي بيروت ١٤٠٣هـ.

٢٣- **الطريحي**، محمد سعيد: **ملوك حيدر آباد**، أكاديمية الكوفة في هولندا ١٤٢٦هـ.

٢٤- **الطريحي**، فخر الدين: **مجمع البحرين**، مكتب نشر الثقافة الإسلامية قم ايران ١٤٠٨هـ.

٢٥- **الطوسي**، محمد بن الحسن: **اختيار معرفة الرجال**، مؤسسة آل البيت لاحياء التراث، قم ايران ١٤٠٤هـ.

٢٦- **الطوسي**، محمد بن الحسن: **تهذيب الأحكام**، دار الكتب الإسلامية طهران ١٣٩٠هـ.

٢٧- **الطوسي**، محمد بن الحسن: **رجال الطوسي**، مؤسسة النشر الإسلامي قم ايران ١٤١٥هـ.

٢٨- **الأمين**، السيد محسن: **خطط جبل عامل**.

٢٩- **ابن طيفور**: **بلاغات النساء**، مكتبة بصيرتي قم.

٣٠- **العسقلاني**، ابن حجر: **فتح الباري**، دار المعرفة بيروت.

٣١- **عزب**، خالد: **الكوفة مدرسة العلم الأولى**: موقع الكتروني (www.islamonline.net).

٣٢- **العوامي**، السيد عدنان: مقال بعنوان **القطيف**.

٣٣- **القرشي**، باقر شريف: **النظام السياسي في الإسلام**، دار التعارف بيروت ١٣٩٨هـ.

٣٤- **القمي**، عباس: **الكنى والألقاب**، مكتبة الصدر طهران.

٣٥- **الكليني**، محمد بن يعقوب: **الكافي**، دار الكتب الإسلامية، طهران ١٣٨٨هـ.

٣٦- **المجلسي**، محمد باقر: **بحار الأنوار**، مؤسسة الوفاء بيروت ١٤٠٣هـ.

٣٧- **محمد**، أويس كريم، **المعجم الموضوعي لنهج البلاغة**، مجمع

البحوث الإسلامية مشهد.

٣٨- **المدني**، علي ابن معصوم، **الدرجات الرفيعة في طبقات الشيعة**، مكتبة بصيرتي ١٣٩٧هـ.

٣٩- **المعرفة**، مجلة (الكترونية) بتاريخ ٢/ ١/ ١٤٢٨هـ.

٤٠- موقع الجزيرة نت.

٤١- **المهاجر**، جعفر: **التأسيس لتاريخ الشيعة في لبنان وسورية**، دار الملاك بيروت.

٤٢- **الميانجي**، علي الأحمدي: **مكاتيب الرسول**، دار الحديث قم إيران ١٩٩٨م.

٤٣- **ابن منظور**، محمد بن مكرم: **لسان العرب**، أدب الحوزة قم ايران ١٤٠٥هـ.

٤٤- **الموسوعة العربية العالمية**، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الرياض ١٤١٦هـ.

٤٥- **ميرفان**، صابرينا: **حركة الإصلاح الشيعي: علماء جبل عامل وأدباؤه**، دار النهار ٢٠٠٣هـ.

٤٦- **النزر**، خالد: **قبيلة عبد القيس تاريخ وأمجاد**، موقع أقلام نت.

٤٧- **نصر**، ولي: **صحوة الشيعة**، دار الكتاب العربي بيروت ٢٠٠٧م.

٤٨- **نقاش**، اسحاق: **شيعة العراق**، المكتبة الحيدرية، قم ايران، ١٤١٩هـ.

٤٩- **الوائلي**، أحمد: **هوية التشيع**، نسخة الكترونية.

٥٠- **ويكبيديا،** موسوعة موقع الكتروني

***

* اعتمدنا في كثير من الكتب المطبوعة على النسـخة الموجودة في برنامج (مكتبة أهل البيت) الذي أصدره مركز المعجم الفقهي.

***

* للتواصل مع المؤلف: www.al-saif.net